

الباب الثالث

ابن زيدون

(٣٩٤ - ٤٦٣ هـ)

obeikandi.com

الفصل الأول

ابن زيدون : عصره ونشأته ، حبه لولادة

البيئة التاريخية والسياسية :

بلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج مجدها زمن خلافة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم الثاني من بعده. ثم كان حُكْمُ الحاجب المنصور الذي استبد بالخلافة امتداداً لهذا العهد الذهبي الذي عرفته بلاد الأندلس . وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م ثم جاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر فتابع سياسة العامريين الاستبدادية ولكن الأندلس استطاعت أن تحافظ على عهد ازدهارها خلال الأعوام الستة التي حكم فيها والتي مات في نهايتها مسموماً عام ٣٩٩ هـ .

ومنذ هذا التاريخ يبدأ عهد الاضطراب أو كما يسميه المؤرخون العرب « عهد الفتنة » . وقد ظلت نار هذه الفتنة مشتعلة حتى سنة ٤٢٢ هـ . وهي السنة التي مات فيها آخر خليفة أموي هشام الثالث الملقب بالمتعمد بالله . وقد كانت قرطبة خلال هذه السنين مسرحاً لاضطرابات دامية لعب فيها البرابرة دوراً هاماً لميلهم إلى العامريين . وتوالى في هذه الفترة عدد من الخلفاء ، كان كل واحد منهم يشن العداء على الآخر فيجد أنصاراً يؤازرونه من البربر أو من الإسبانيين على السواء . وقد لاقت قرطبة من جراء هذه الفتنة ضرراً كبيراً فنُهبت وخرَّبَ أجمل قصورها^(١) . وهكذا لا يكاد يظل القرن الخامس للهجرة حتى رأينا شمس الخلافة الأموية

(١) إليكم من تعاقب من الخلفاء في أثناء الفتنة :

محمد المهدي (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ)	عبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤ هـ)
سليمان المستعين بالله (٣٩٩ - ٤٠٧ هـ)	محمد المستكني بالله (٤١٤ - ٤١٦ هـ)
عبد الرحمن المرتضى (٤٠٨ - ٤٠٩ هـ)	هشام الثالث المتعمد بالله (٤١٨ - ٤٢٢ هـ)

في الأندلس تخبو شيئاً فشيئاً ، ورأينا إزاء هذه الاضطرابات وهذا الضعف يتقوض ذلك البناء الضخم الذى شاده العرب في قرطبة ورأينا تلك الدولة الأموية في الأندلس تتجزأ في دويلات صغيرة عرفت بدول طوائف الملوك ، فأخذ كل أمير في إقليم بل كل حاكم في مدينة يستردّ حرّيته ويستقلّ في إقليمه أو مدينته ويكون دولة لها استقلالها ونظامها ، فكان في قرطبة بنو جهور ، وفي إشبيلية بنو عباد ، وفي طليطلة بنو ذى النون ، وفي بطليوس بنو الأفضس ، وفي سرقسطة بنو هود ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف التي كان يناهض بعضها بعضاً .

على أن هذه المناهضة لم تحل دون الازدهار الأدبي ، فقد عرفت دول ملوك الطوائف عهداً زاهراً للأدب وبلغ النشاط الأدبي أقصاه . وكنت ترى قصر كل ملك منتدى لأهل الشعر والأدب ، وقد تنافس هؤلاء الملوك في اجتلاب الشعراء والكتّاب والمغنين إلى قصورهم ليباهوا بهم من حولهم من الملوك والسلطين . وكان منهم أدباء وشعراء كالظفر وابنه المتوكل ملكي بطليوس ، والمعتضد وابنه المعتمد ملكي إشبيلية .

* * *

في غمرة هذا النشاط الأدبي ، وفي فورة هذه الفن المضطربة نشأ شاعرنا ابن زيدون وأتم حياته في فجر عهد ملوك الطوائف ، واتصل في جملة ما اتصل بملوك دولتين كبيرتين من دول الطوائف هما الدولة الجهورية والدولة العبادية .

أما الدولة الجهورية فقد نشأت في أعقاب الفتنة سنة ٤٢٢ هـ عندما صار الأمر في قرطبة إلى طبقة الخواص فقام عميدها أبو الحزم بن جهور واستولى على الأحكام في قرطبة وتأسست فيها حكومة شورية عرفت بالدولة الجهورية حكمت من سنة ٤٢٢ إلى ٤٦١ هـ .

أما الدولة العبادية فهي دولة عربية من بني لحم قامت في إشبيلية ونزح إليها شاعرنا ابن زيدون — كما سنرى — وحكمت من سنة ٤١٤ إلى ٤٨٤ هـ . وهي من أبهج الدول في الفضل والكرم وحب الأدب ، وقد تقياً شاعرنا ابن زيدون في عهد ملكيها المعتضد والمعتمد ظلّال النعم والهناء .

فمن هو ابن زيدون الذى نشأ في هذا الجو المضطرب ؟

مولد ابن زيدون ؛ نشأته وثقافته :

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٤٩٤ هـ / ١٠٠٣ م ، وهو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي ، وهو ، كما نرى من نسبه ، عربى صريح ينتمى إلى قبيلة مخزوم القرشية التي ذكرها المقرئ بين القبائل التي رحلت إلى الأندلس وذكر منها ابن زيدون .

كان أبوه قاضياً في قرطبة وجيهاً ثرياً غزير العلم والأدب ، ويذكر المؤرخون أنه توفى بإلبيرة ، بالقرب من غرناطة ، وهو متوجه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحمل إلى قرطبة فدفن فيها ، فرثاه صديقه الشاعر القرطبي أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء فقال :

أَيُّ رُكْنٍ مِنَ الرِّيَاسَةِ هَيْضًا وَجَمُومٍ مِنَ المَكَارِمِ غَيْضًا^(١)
حَمَلُوهُ مِنَ بَلَدَةِ نَحْوِ أُخْرَى كَيْ يَوَافُوا بِهِ ثَرَاهُ الأَرِيضًا^(٢)
مِثْلَ حَمَلِ السَّحَابِ مَاءً طَبِيبًا لِيَدَاوِيَ بِهِ مَكَانًا مَرِيضًا^(٣)

ولم يذكر ابن زيدون أباه في ديوانه إلا مرة واحدة حيث يقول في قصيدته الطائية التي يخاطب بها بعد فراره من السجن أستاذه الأديب أبا بكر بن مسلم مستنهماً همته للشفاعة :

عَلَيْكَ أبا بَكْرٍ بَكَرْتُ بِهَمَّةٍ لَهَا الخَطَرُ العَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطٌّ
أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التَّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَاحِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطٌ^(٤)

(١) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء .

(٢) الأريض : الزكي المعجب للعين .

(٣) انظر نفع الطيب (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٤) الديوان ص ١٣ - ١٥ .

وكانت وفاة والده سنة ٤٠٥ هـ ، وولادته سنة ٣٠٤ هـ (١) .

أما أمه فقد ذكرها ابن زيدون مرتين في آثاره ، الأولى عند ما زارته في السجن فبكت فقال قصيدته :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْعَمَامُ عَلَى مِثْلِي

وَيَطْلُبَ ثَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلَتَ النَّصْلِ (٢)

والثانية في رسالته إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم التي يقول فيها :

« وقد هجرت الأرض التي هي ظئري ، والدار التي كانت مهدي ، وغبت عن أم أنا واحدها ، تمتد أنفاسها شوقاً إلي ، وتغض ، أجفانها حزناً علي... (٣) »

ويظهر أنه كان يحبها حباً جماً ، ولا تفيدنا المصادر عن تاريخ وفاتها ولكننا نعلم أنها ما زالت حية عند خروجه من السجن سنة ٤٣٣ هـ . هذا ولا نعلم شيئاً عن زوجته ولا عن تاريخ زواجه ، ولكننا نعلم أن له ابناً يدعى أبا بكر وزر للمعتمد بعد وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ هـ ، وقتل يوم سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ .

ونشأة الشاعر في قرطبة ساعدته على الانكباب على العلم والتحصيل فقد كانت هذه المدينة موئل العلوم والآداب في الأندلس ، ولا شك أنه قد بدأ يتلقى العلم على يد أبيه الذي وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء من أصحابه ، ولكن الذي تلقاه عن أبيه لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً ، فقد كان ابن زيدون في الحادية عشرة من عمره عند وفاة والده ، وهذا الموت المبكر لم يمنع شاعرنا من متابعة علومه . ويصفه من ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ كثيراً من آثار الأدباء

(١) انظر نفع الطيب (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٢) الديوان ص ١١٢ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٥٣ .

وأخبارهم وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة ، وكانت له أيضاً ثقافة فلسفية تدلنا عليها ما ورد له في رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسمائهم كأفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجابر بن حيان وغيرهم. وإننا نرى في رسالته الهزلية والبلدية أيضاً من المعارف التاريخية والثقافية الإسلامية وعدداً كبيراً من الأمثال والأشعار ، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها في حلقات العلم والأدب في قرطبة على يد مشاهير علمائها. ويذكر المستشرق (كور) في رسالته عن ابن زيدون أستاذه له . هما أبو بكر بن مسلم بن أحمد وكان نحوياً أديباً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، والقاضي أبو بكر بن ذكوان^(١) .

وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذه أكثر من مرة في آثاره ، فهو يذكر أبا بكر بن مسلم في قصيدته الطائية التي أشرنا إليها^(٢) ، ويوجه إليه رسالة أشرنا إليها أيضاً عند الحديث عن أمه نجدها في الذخيرة^(٣) وقد رثى أيضاً القاضي أبو بكر بن ذكوان في قصيدة مطلعها :

اعجَبَ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ وَلِدَوْلَةِ الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْوِ الْمُنَى إِنْ اغْتَرَّكَ بِالْمُنَى لَضَالُ^(٤)

فتقافة الشاعر إذن ثقافة واسعة ، ولعله قد استقى معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة في عصره .

ولم تكن قرطبة مسرحاً للعلم فقط بل كانت مسرحاً للهو والطرب ، وكان أهلها

(١) يرى الدكتور شوق ضيف أن أبا بكر بن ذكوان هذا كان قاضي أبي الحزم بن جمهور ولم يكن أستاذاً لابن زيدون بل كان صديقه ورفيقه في التلمذة والدراسة وتوفي سنة ٤٣٥ هـ وقد خلطوا بينه وبين أبي العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة الذي امتدت حياته إلى سنة ٤١٣ هـ ، ويظن الدكتور شوق ضيف أن ابن زيدون لزم أبا العباس بن ذكوان هذا . وكان صديقاً لأبيه ، وأفاد من علمه وأدبه ، انظر كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ .

(٢) الديوان ص ١٣ .

(٣) المجلد الأول ص ٣٥٠ .

(٤) الديوان ص ١٥٣ .

في رخاء من العيش ميالين إلى هذا اللهو وهذا الطرب ، ولم تبعدهم الحوادث السياسية والفن الداخلي عن الانهماك في لهوهم ، بل لعل هذه الدسائس كانت تحاك في مجالس اللهو هذه ، ونستطيع أن نقول إن ابن زيدون قد مثل أهل قرطبة في شخصه أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيف الروح كثير الدّعة ، ميالٌ إلى المجون إلى جانب طموحه السياسي ، لهذا فقد نال شهرة واسعة في مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان للنساء دورٌ في هذه المجالس ، وكان لبعض هؤلاء النساء منتديات أدبية يخاطبها الشعراء والأدباء ، فأثر هذا الوسط في نفس شاعرنا ، وكان ابن زيدون من بين هؤلاء الشعراء الذين ظهر على نظمهم آثار هذه الحياة الاجتماعية ومن نالوا حظوة في مجالس النساء هذه ولا سيما في مجلس ولادة التي ستحدث عنها . فلهدا يمكننا أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : إنه شاعر متأثر بالجمال مشغوف بمجالس اللهو وهذا ما سيقودنا إلى الحديث عن علاقاته مع ولادة ، ثم هو شاعر سياسي طموح وهذا ما ستجولوه لنا علاقاته مع الجمهوريين وما ناله من سجن ، ثم انتقاله إلى بني عباد وحظوته عند ملوكهم وما رافق هذه الحياة المضطربة من شعر مدح وشعر شكوى وشعر غزل .

ابن زيدون وولادة :

شغف ابن زيدون بولادة مليباً بذلك دواعى قلبه ، فن هي هذه المرأة وما هي أطوار هذا الحب الذي فتن قلب الشاعر العربي وجعله ينطق بالشعر الخالد .

ولادة هذه هي بنت المستكفي بالله الخليفة الذي جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بني أمية في الأندلس ، وقد كانت بيعته سنة ٤١٤ هـ ، ولم يدم حكمه إلا سنتين في فترة مضطربة . وكان ماجناً كما يحدثنا عنه ابن بسام فيقول : « لم يجلس في الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص »^(١) وقد ترك بنتاً لم يذكر المؤرخون سنة

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٨٧ .

ولادتها، ولكنهم ذكروا وفاتها فقال المقرئ إن وفاتها كانت سنة ٤٨٠ هـ أو سنة ٤٨٤ هـ^(١) وقالوا إنها عمرت طويلاً ، فإذا حددنا سنة ولادتها حوالى سنة ٤٠٠ يكون عمرها عند وفاة والدها يقارب الستة عشر عاماً أو العشرين أو أكثر من هذين الرقمين بقليل ولا شك أن هذا مجرد افتراض وهو افتراض لا يبعد كثيراً عن الحقيقة كما نراه من الأرقام ، ويبدو أن أبا ولادة قد اهتم بتثقيفها فأحضر لها المعلمين والمؤدبين . ولم تلبث أن تفتحت مواهبها . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها (سنة ٤١٦ هـ) حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة . وقد خصها المقرئ بفصل خاص تحدث عنها وعن جمالها . وأورد لها شيئاً من الشعر . وقال ابن بسام في ذخيرته^(٢) إنها كانت واحدة أقرانها يتهاك الشعراء والكتاب على حلوة عشتها ، وكان مجلسها في قرطبة منتدى لأحرار المصر ، ولعله لم يتبدل حجابها إلا بعد وفاة أبيها ، كما يبدو من كلام ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون الهزلية إذ يقول : « ابتدل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف »^(٣) . وإذا صح ما روى عنها وعن غيرها من بنات الملوك والأمراء من أخبار اللهو والعبث ومجالس الأئس فإن الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة العربية في الأندلس تفوق ما ألفه المشرق ، وقد ذكر ابن بسام في ذخيرته أن ولادة على علو نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها ببلداتها . كتبت فيما زعموا على أحد عاتق ثوبها مطرزاً بالذهب :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتية تيهها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلى من يشتهيها^(٤)

(١) المقرئ ج ٢ ص ١٠٩٨ .

(٢) القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٧٦ - ٣٨٧ .

(٣) سرح العيون ص ٧ .

(٤) الذخيرة ص ٣٧٦ .

وهكذا كان لها أن تعبت ، وكان لها جمالها وشعرها تغنيه ويغنى لها في مجلسها الأدبي الذي كان يضطرم فيه الهوى والفن والشعر .

ولم تكن ولادة فريدة في الحرية والحرارة في التعبير عن عواطف الحب أو اللهو بل كان يشاركها في هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لخصفة بنت الحاج ، من أشرف غرناطة ، شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولادة قالت :

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله إنني رشفت بها ريقاً أرق من الخمر^١

وهكذا نرى أن ولادة مع ميلها للأدب ونظمها للشعر كانت مولعة بالحب مستسلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طوال حياتها ، وقد أولع بها بن زيدون وأولعت به وربط المؤرخون ذكرها بذكره .

لا شك في أن ابن زيدون كان من جملة الشعراء الذين يقصدون منتداهما الأدبي ، وهو في ميعة الشباب ، وفي هذا المنتدى تمكنت بينهما أواصر الصداقة ووقع في أشراك حبها . على أننا لا نعلم متى كان اللقاء الأول الذي تطارحا فيه الغرام . وما هو ذا ابن بسام يصفه لنا على لسان ابن زيدون :

قال أبو الوليد كنت في أيام الشباب وغرة التصابي هائماً بغادة تسمى ولادة فلما قدّم اللقاء وساعد القضاء كتبت إلى :

ترقب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسرِّ
وبى منك مالو كان بالبدْرِ مابداً وبالشمس لم تطلعُ وبالبدْرِ لم يسر

وذهب إلى الموعد المضروب ، ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة على لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التي أحبها ، فتنساب على شفثيه الأوصاف

التقليدية ويقول: « فلما طوى النهار كافوره ونشر عنبره^(١)، أقبلت بقدر كالفصيص، وردف كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فلنا إلى روض مُدبَّج^(٢) وظل سَجَسَج^(٣)، وقد قامت راياتُ أشجاره، وفاضت سلاسل أمهارة، ودُرُّ الطل منشور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كلُّ منا بحبه، وشكا إليه ما بقلبه، وبتنا بليلة نجى أقحوان الثغور . . . »^(٤)

هل كان هذا هو اللقاء الأول، ألم يسبق هذا اللقاء خلوات وأحاديث صريحة غير تلك التي كانا يتبادلانها في مجلسها الأدبي؟ على أننا لا نزعم أن هذا المنتدى كانت تجرى فيه أحاديث الأدب الرفيع فقط، ولعل حرية القول والعبث كانا فيه على جانب كبير. ونرى أن هذه الكلمات التي نقلها لنا ابن بسام ليس فيها وصفٌ حار أو صدق عاطفة، بل هي كلمات يطغى عليها فن الكاتب الثرى وتأنقه اللفظي الذي يسود أساليب العصر، ومهما يكن من أمر فهو لقاء ماجن وحب مهتك. ويضيف ابن زيدون بعدما وصف من اللقاء قوله:

« فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مَحَبًُّ وِدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوَدَّعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تَلِكِ الْخَطَا إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَى حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطَّلَعَكَ
إِنْ يَطْلُ بِعَدِّكَ لَيْلَى فَلَكُمْ بِتُّ أَشْكُو قَصْرَ اللَّيْلِ مَعَكَ »

وقد نسب صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هذه الأبيات لابن زيدون، إلا أن المقرئ نسبها لولادة، فقال: « وَوَقْتُ بِنَا وَعَدَّتْ، وَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ

(١) كافوره: بياضه، عنبره: سواده، وهنا استعارتان.

(٢) مدبج: مزين بالأزهار.

(٣) سَجَسَج: الهواء المعتدل اللطيف.

(٤) الذخيرة، المجلد الأول ص ٣٧٧.

ودعته بهذه الأبيات .

ونفضل نحن نسبتها لابن زيدون ، إذ أن صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هما أقرب عهداً بالشاعر من المقرئ ، والديوان الذي بين أيدينا ينسبها لابن زيدون أيضاً .

وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعاً لحيهما ، وفي خمائلها أخذًا يتساقيان
كؤوس الهوى ويعبان من شذى النعيم تغمرهما ظلال الحب ودفوه .

على أن أيام هذا الحب المتبادل لم تدم طويلاً على ما يظهر ، ويذكر بعض
من أرخ لابن زيدون أن جفوة حصلت بين الشاعر وصاحبه ، فكتبت إليه :

ألا هَلْ لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكوكلُّ صَبِّ بما لَقِي
وقد كنت أوقاتَ التزاورِ في الشتا أبيتُ على جَمْرِ من الشوقِ مُحْرِقِ
فكيف وقد أَمْسيتُ في حالِ قِطْعَةٍ لقد عَجَلَّ المقدورُ ما كنتُ أَتَّقِي
تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضي ولا الصبرَ من رِقِّ التشوُّقِ مُعْتَقِي
سَقَى اللهُ أرضاً قدْ غدتْ لك منزلاً بكلِّ سَكوبٍ هاظلي الوَبْلِ مُعْدِقِ
فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يوماً لستُ فيه بِمُلْتَقِ مُحْيَاكِ من أَجْلِ النَّوَى والتفرُّقِ
وكيفَ يطيبُ العيشُ دونَ مَسْرَةٍ؟ وأى سرورٍ لِلِكَيْبِ المورِقِ^(١)؟

ويبدو أن هذه الجفوة لم تطل ويعود العاشقان إلى سابق عهدهما يتشاكيان
الصبابة والهوى ، ولكن ولادة لم تلبث أن تبطل ، فظهر من الجفا ما تظهر وتذيق
صاحبها عذاب المهجر على حين يبدي لها من التلطف والتذلل ما ينم لنا عن وجده وحبه .
ونحاول أن نجد سبباً لهذا الأزوار فلا نعثر إلا على ما ينقله لنا ابن بسام

من أن ابن زيدون أشار إلى جاريتها أن تعيد له صوتاً غنته فظنت أنه يغازلها من
دونها فغضبت غضباً شديداً وكتبت إليه :

لو كنت تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركتَ غُصْنًا مُثْمِراً بجماله وجنحتَ للغُصْنِ الذي لم يُثمر
ولقد علمتَ بأنني بدرُ السما لكنْ ولِعتَ لِشِقْوَتِي بِالْمُشْتَرِي
وهكذا تلعب الغيرة في قلب المرأة وتكون سبباً من أسباب جفاء ولادة لعاشقها
الشاعر الذي أخذ يبكي ويئن . ونحن لا نظن أن هذا السبب هو ، وحده ، الذي
أدى إلى الجفاء ثم إلى القطيعة ، وقد يكون انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد
ترك في نفسها أثراً سيئاً وهي بنت خليفة أموي فجاءت الغيرة تذكي في نفسها شتى
الوساوس .

ومهما يكن من أمر فقد حصلت القطيعة ، وكانت ولادة هي البادئة ،
وسمحت لعاشق جديد ، ليس بالشاعر المرهف هذه المرة وإنما هو الوزير الخطير ،
أن يتقرب منها ، هو الوزير أبو عامر بن عبدوس ، ولسنا ندرى ما إذا كان ابن
عبدوس ينتظر هذه الجفوة ليتقرب من الغادة التي أخذت أصداء حلاوتها ورنات
أشعارها تتجاوبها أنديّة قرطبة اللاهية ، ولكن المقرئ يجعل لقاءها لابن عبدوس
وتحويها إليه على غير ميعاد فيقول : « ولا مرت بالوزير أبي عامر بن عبدوس وأمام
داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ،
وقد نشر أبو عامر كميّه ، ونظر في عطفه ، وحشر أعوانه إليه . فقالت له :

أنت الخصبُ وهذه مِصْرُ فتدققاً ، فكلاكما بحرُ

فتركته لا يبحر حرفاً ، ولا يرد طرفاً» (١) .

وهكذا كانت الضربة الصاعقة التي أصابت قلب الوزير فجعلته يتبعها بعد

أن صادته بمبائلها وبادلته بالعشق عشقاً وبالغرام غراماً .

ويشتد الأمر على ابن زيدون ، ويتألم أشد الألم ، ويتضرع لها ويتوسل ولكنها لا تلين ، فلا يجد بداً من أن يتوعد ابن عبدوس نفسه ويتهدده فيكتب له قصيدة نقرأ في مطلعها هذه الأبيات (١) :

أَثَرَتْ هِزْبَرَ الشَّرَى إِذْ رِبِضٌ وَنِبَهْتَهُ إِذْ هَذَا فَاغْتَمَضُ
وَمَا زِلْتَ تَبْسُطُ . مَسْتَرْسِلاً إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبِضُ
حَذَارِ حَذَارِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا سِيمَ خَسِيفاً أَبِي فَاغْتَمَضُ
فَإِنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوُ سِ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يُعَضُّ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَزَلُّ وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرِضُ (٢)
أُعَيْدَكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَايَا انْقَبِضُ

ولكن ابن عبدوس لم يصغ إلى تعريضه ووعيده ، وكذلك ولادة لم ترق لآلام حبه . ويعلم ابن زيدون أن منافسه يستخدم في مراسلاته سيدة تزينه في عيني صاحبه وتصف لها غناه وجماله ، فيستغل هذا الأمر ليكتب إلى ولادة رسالته الهزلية يسخر فيها على لسانها من ابن عبدوس ويتهم عليه ويعبث به ويهجو عليها تفصم حبل وصلها مع خصمه . ولكن ولادة لم تفعل بل تغضب غضباً شديداً وتهجو بيتين هجاء مقدعاً فاحشاً . ويعظم الخلاف بينهما وتحدثم العداوة بينه وبين منافسه ابن عبدوس . وستكون هذه العداوة من جملة الأسباب التي أدت إلى سجن الشاعر .

ويستمر شاعرنا في الأتین والشكوى ، وهنا يبدو لنا إخلاصه لحبيته ، ويتمثل لنا حبه وألمه ، كما تتكشف لنا نفسية معشوقته المتهتكة ، وكيف أنها لم تكن في

(١) الديوان ٢٣٧ .

(٢) النهوس : الغرض ، الشجاع : الذكر من الحيات .

حبها الأول إلا لاهية عابثة كما هي تلهو الآن وتتساقى كؤوس الهوى مترعة مع ابن عبدوس .

ويكتب لها ابن زيدون كثيراً من القصائد ذاكراً حبه ، متشوقاً لأيامه السعيدة ولكن ولادة تصم الأذن وتغلق القلب .

ولا بد لي هنا من ملاحظة ، هي أن أكثر غزل الشاعر بولادة قد قاله بعد أن ساءت العلاقة بينهما ، فهو شعر شكوى وألم وذكرى ، فأين هو ذلك الشعر الضاحك الذي وصف أيام غرامهم السعيد ، وما السر في هذا الصمت عن وصف ذلك الحب ؟ هل بخلت قريحة الشاعر في أيامه الهائلة ، أم أن حبه كان في البدء حباً مهتكمًا تافهاً ، ثم انقلب إلى حب حقيقي عندما ألهم البعاد قلبه فانجس بالشكوى ووصف غرامه المعذب ؟ هذا ممكن . على أن فترة حبهما الهائى كانت قصيرة ، ولم يحدثنا الشعراء كثيراً في أدبنا العربي عن أفراح الغرام ، وأكثر غزلنا وصف لتباريح الهوى وعذاب الشوق وقسوة المحبوبة .

هذا وقد كانت معاني شاعرنا في قصائده الغزلية هذه تحوم حول إثبات حبه وإخلاصه لولادة ، فليس لها إلا أن ترق وتعطف وتعود لأيام الحب الأول . إنها أصغت لكلام الحساد والوشاة ولم يرتكب ما يسمح لها بهذه القطيعة ، وهو ما يزال يذكرها دائماً لأنه في حنين دائم . حول هذه المعاني وأضرارها كانت تدور أكثر قصائده الغزلية وكانت على شكل مقطوعات إلا أننا نجد بعض القصائد الكبيرة كقصيدته الشهيرة التي أرسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، ومطلعها :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا

وكهذه القصيدة التي يقول في مطلعها^(١) :

لئن قَصَرَ اليأسُ منكِ الأملِ وَحَالَ تَجَنُّيكِ دُونَ الحِيلِ

ورَاقَلِكِ سِحْرُ العِدَا المُفْتَرَى وَغَرَّكَ زورُهُمُ المُفْتَعَلُ
فَإِنَّ ذِمَامَ الهَوَى لَنْ أزالَ أَبْقِيَهُ حِفْظاً كما لَمْ أزالَ

ففيها تتمثل حرقه الشاعر وانكساره ورجاؤه لحب جديد يجنى فيه سعادة النعيم
الآفل .

الفصل الثاني

ابن زيدون في بلاط بني جهور وبني عبّاد

الشاعر في بلاط أبي الحزم وسجنه :

لامرية في أن ابن زيدون كان من أكابر الرجال الذين لم يكونوا في معزل عن حوادث الفتنة . وقد كان ، كما يبدو من مدائحه لبني جهور ، من مناصريهم . وليس بعيداً أن يكون ما أظهره من العطف على حركتهم هو الذي حدا بأبي الحزم ابن جهور إلى تقريبه واستخدامه ، إلى جانب ما توسّم فيه من الصفات الممتازة والأدب الرفيع . وقد نقل ابن بسام في الذخيرة عن ابن حيان في وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : « ونوّهَ بفتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوة السنية بقرطبة . والرياسة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلطة ، وقوة العارضة ، والافتنان في المعرفة وقدّمه للنظر على أهل الذمة ، لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعدد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف في ذلك ، وغلب على قلوب الملوك » (١) .

ويقول المؤرخون بعد ذلك إن أبا الحزم بن جهور قد تغير على ابن زيدون فسجنه ، وقد قال ابن بسام في صدد سجنه ما يلي : « وكان عمّلقه من عبد الله بن أحمد المكوي ، أحد حكام قرطبة ، ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره من صنائعه » (٢) .

ونحن لا نلرى الدوافع الحقيقية إلى هذا السجن ، وهناك من يرى أن ابن

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) ديوان ابن زيدون ٤٠٩ .

عبدوس نسب إليه أنه يحاول القيام بثورة على أبي الحزم بن جهور ، فسبق من أجل هذا إلى المحاكمة ، وكان القاضي الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ، الذى ولي قضاء قرطبة فى المحرم سنة ٤٣٢ والذى أشار إليه ابن بسام فيما قدمناه ، فعندما عرضت قضيته عليه أمر بسجنه على الفور لموجدة قديمة بينه وبين الشاعر . فإذا افترضنا أن هذه المحاكمة قد جرت فى السنة التى ولي ابن المكوى قضاء قرطبة يكون الشاعر قد دخل السجن وعمره ثمانية وثلاثون عاماً .

على أن قصة محاكمته تأخذ شكلاً آخر عندما يرويها ابن بسام فى ذخيرته ، ويرى أن السبب المباشر لسجنه التهمة التى ألصقت به ، وتتلخص فى أن ابن زيدون قد حاول استغلال إرث أحد الأسياد بعد وفاته ، فكان أن قيد إلى المحاكمة ، فحكم عليه القاضي ابن المكوى بالسجن ، إلا أن خبر هذه التهمة يدفعها ابن زيدون عن نفسه فى رسالة أرسلها إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم ، وهو مختف بقرطبة بعد هربه من السجن^(١) ، ويثبت فيها أن هذا السيد كان لا يملك شيئاً حتى يستطيع أن يكسب إرثه . وقد أشار المستشرق (كور) إلى هذه التهمة عند الحديث عن سجنه ، وقال إنه سجن بعد المحاكمة ، ولكنه لم يفهم النص فهماً دقيقاً^(٢) .

ومهما يكن من أمر فسجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده حوله من مؤامرات ، وكان فى طليعة هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه . وقد يكون هؤلاء الحساد قد أثاروا أيضاً ضده قضية حبه لولادة .

وهكذا يقضى الشاعر ما ينوف عن خمسمائة يوم سجيناً حائراً يستعطف ابن جهور ويناشده العفو دون فائدة ، محاولاً أن يجد تعزية فى ذكرى حبيبته التى كان ينظم الأشعار فى استعطافها وعتابها ويذكر أيام حبهما .

وقد نظم الشاعر فى أثناء سجنه عدة قصائد جميلة تغلب عليها رنة الاستعطاف

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) كور ، كتابه عن ابن زيدون بالفرنسية ، ص ٥١ .

والحنين والعتاب منها هذه القصيدة التي نقرأ فيها هذه الأبيات فنعلم أن بياض الشيب قد وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يبلغ ثلاثين ربيعاً ، فيقول (١) :

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبْرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَتَبُ وَلِلشَّبِيبةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرِ
هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبي طَائِرُ الشَّرْرِ

ومنها هذه القصيدة الشهيرة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، التي بعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن برد والتي جاء ذكرها في قلائد العقيان ومطلعها :

مَا عَلَيَّ ظَنِّي بَأْسٍ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو (٢)

ولعله أيضاً قد نظم في هذه الفترة هذه القصيدة الرقيقة القصيرة التي نقرأ فيها هذه الأبيات فيخيل لنا أنها قيلت في السجن وابن زيدون لا يستطيع أن يطير إلى محبوبته ولادة :

وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنَّ جَلَّتْكَ لِي اخْتِلَاسًا أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ وَغُصْنِ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ
فَلَوْ أَسْطَعُ طِرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ؟ (٣)

(١) الديوان ص ٩٢ .

(٢) الديوان ص ١ .

(٣) الديوان ص ٢٦١ .

ومن سجنه أرسل ابن زيدون رسالته الجدية إلى ابن جهور يستعطفه فيها وأرسل معها قصيدة يمدحه بها ويستعطفه أيضاً ومطلعها (١) :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم

وقد ذكر في هذه القصيدة أنه مكث في السجن خمسمائة يوم فقال :

أفصبرُ مئينَ خمساً من الأيا م ، ناهيكَ من عذابِ أليمٍ -

وعلى هذا تكون هذه الرسالة قد أرسلت إلى أبي الحزم في أواخر أيام سجن

الشاعر :

لم يلتق ابن زيدون من ابن جهور على رغم استعطفه له إلا الجفاء ، فلم يعف عنه وذهبت توسلاته عبثاً ، عندئذ عزم على الفرار ، ونزعم مع المستشرق كور (٢) أن أبا الوليد بن جهور قد ساعد الشاعر على الهرب ، فقد كان صديقه وكان يزوره في سجنه . وقد أشار ابن بسام إلى ذلك عندما قال : إن أبا الوليد قد انتشل الشاعر من نكبته .

وهكذا يفر الشاعر من سجنه في غضون سنة ٤٣٣هـ ، بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته في استعطاف أميره أبي الحزم ، ويقصد إشبيلية للمرة الأولى فيجد الشاعر فيها صدرأ رجياً حيث أدناه المعتضد منه وقربه إليه وغمره بعطفه . ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة ، موطن صباه ومسرح هواه ، فكتب إلى حبيته قصيدته التونية الخالدة التي استهلها بقوله :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا وطاب عن طيب لُقيانا تجافينا

وختمها بقوله :

أولى وفاءً ، وإن لم تبلى صلةً فالطيب يُقنِعنا والذكر يكفينا

(١) الديوان ص ٤٩ .

(٢) كور : ابن زيدون ص ٦٨ .

وفي الجواب متاعٌ إن شفَعْتِ به بيضَ الأيادي التي ما زلتِ تولينا
عليك منا سلامٌ اللهُ ما بقيتُ صباةً بكِ نخفيها فتخفينَا

ولم يطق البقاء بعيداً عن هواه فعاد إلى قرطبة واستخفى بضاحيتها الزهراء وأخذ يرأسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى أبي الحزم ، فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم^(١) وفيها أبان سبب هربه بعد أن أعيته وسائل الاستعطاف وعاتب أستاذه لتقاعسه في إخراجه من السجن ، ثم أتبعها بقصيدته الطائفة البارعة الوحيدة في الديوان ، وكنا قد أشرنا إليها^(٢). ولم يكتب الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولي العهد أبي الوليد .

يقى ابن زيدون محتفياً في الزهراء ، وفي هذه الفترة كتب إلى حبيبته قصيدته العاطفية التي استهلها بقوله :

إني ذكركِ بالزهراءِ مُشتاقاً . والأفقُ طَلَقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا
وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله كأنه رَقٌّ لي فاعتلَّ إشفاقاً^(٣)

وفي صدد هذه القصيدة يقول ابن خاقان^(٤) : « . . . فلما حلَّ بذلك القرب . وانحلَّ عقد صبره بعد الكرب . كرتُ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ويتسلى برؤية ما فيها ، فوافاه الربيع قد خلخ علىها بُرده ، ونثر سوسنه وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها . . . فتشوق إلى ولادة وحن ، وخاف تلك النوايب والحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده وطلّاقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده » ، ثم يذكر ابن خاقان جميع القصيدة وهي في خمسة عشر بيتاً .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) انظر ص ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان ص ٢٥٧ .

(٤) قلائد المقيان ص ٨٢ .

وقد يكون الشاعر قد أهدى أبا الحزم بن جهور في هذه الفترة بعض قصائد المدح والاستعطاف ، ولكن يصعب علينا تحديد تاريخها .

ويحظى ابن زيدون في النهاية بعفو أبي الحزم وكان لابنه أبي الوليد الفضل الأول في ذلك ، فتوثق المودة بين الشاعر وأبي الوليد فيمدحه ويمدح أبا الحزم أيضاً . ثم لم يلبث أبو الحزم أن توفي في السادس من محرم سنة ٤٣٥ فيرثه بقصيدة مطلعها :

ألم تر أنّ الشمس قد ضمَّها القبر وأنَّ قد كفاناً فقدَّها القمرُ البدرُ^(١)

وليس في هذه القصيدة ما يدل على أنها تنبض بالعاطفة الصادقة . فالمطلع كما نلاحظ تقليدي يمهّد السبيل فيه لمدح ابن المتوفى أبي الوليد الذي أحبه ولم ينس فضله في سبيل خلاصه من السجن . والقارئ لهذه القصيدة يرى أن معانيها تتردد في قصائد أخرى كتلك التي قالها في رثاء المعتضد بن عباد^(٢) ، وكان الشاعر قد أراد من رثاء أبي الحزم تمكين مكانته عند ابنه أبي الوليد على طريقة (مات الملك عاش الملك !) ، فالشاعر يبكي الفقيد ولكنه يتطعم دائماً إلى البدر الذي حل محل الشمس التي ضمها القبر ، ثم يأتي بالأوصاف التقليدية التي لا تلمح فيها خلجات قلب شاعر متأثر .

الشاعر في بلاط أبي الوليد :

بعد وفاة أبي الحزم سنة ٤٣٥ د تقلد زمام الأمور ابنه أبو الوليد ، وهنا نرى نجم ابن زيدون يتألق ويعلو ، فيقربه أبو الوليد منه ويعينه للنظر على أهل الذمة ، فينظم الشاعر قصيدة جميلة تعبر عن بهجته ورجائه فيه يفتتحها بهذا المطلع :

ما للمُدَّامِ تديرها عيناك في سُكر الصِّبا عِطفاك^(٣)

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) الديوان ص ١٤٠ و ١٥٠ و ١٧٤ .

(٣) الديوان ص ٩ .

إلى أن يقول :

قلدني الرأي الجميل فإنه حسبي ليومئى زينة وعراك

وفي هذه القصيدة تتجلى فرحة الشاعر بأمره وقد ارتقى أريكة السيادة والحكم
فيصبح بأعلى صوته :

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبِشْرَانَا مَعًا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ

يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِي لَسْنَائِهِ وَسَنَاهُ تَعَشَوْا السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ (١)

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصَحَّةِ الْإِمْلَاكِ (٢)

وينظم ابن زيدون في هذه الفترة أيضاً قصيدة أخرى في مدح مليكة أبي الوليد
مطلعها (٣) :

أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي حَيْثُ أَحْيَاوْهَا الْأَسَدُ مَهَاةٌ حَمَّتْهَا فِي مَرَاتِعِهَا أُسْدُ

ونرى الشاعر فيها يتدفق مدحاً لآل جهور ويعرض بمطلب لعله الوزارة التي
رفعه إليها مليكة أبو الوليد فيما بعد ، فيقول :

فَدَيْتُكَ إِنِّي قَائِلٌ فَمَعْرُضٌ بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ

مُنَى كَالشَّجَادُونَ اللَّهَاءَ تَعَرَّضْتُ فَلَمْ يَكُ لِلْمَصْدُورِ مِنْ نَفْسِهَا بُدٌّ (٤)

أَمْثَلِي عُفْلٌ خَامِلٌ الذِّكْرُ ضَائِعٌ ضِيَاعُ الْحَسَامِ الْعَضْبُ أَصْدَاهُ الْغَمْدُ

(١) السناه بالمد : الرفعة والشرف ، وبالقصر : الضوء . تشو : تقصد ، عشا النار وإلى النار :
رأها ليلاً فقصدتها راجياً هدى أو قرى .

(٢) الأملاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ١٧٧ ، وقد جاء فيه أنها قيلت في مدح أبي الحزم بن جهور ، وهو خطأ .

(٤) الشجا : ما يعترض في اللهاة أو الخلق .

(٥) العضب : القاطع .

بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَمَةٍ إِنْ تَوَالِيهَا فَحُسْنُ الْأَلَى فِي أَنْ يُوَالِيَهَا سَرْدٌ^(١)
لَعَمْرُكَ مَا لِلدَّمَالِ أَسْعَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حِظَّهُ الطَّبَعُ الْوَعْدُ
وَلَكِنْ لِحَالٍ إِنْ لَبَسَتْ جَمَالَهَا كَسَوْتُكَ ثُوبَ النَّصْحِ أَعْلَامُهَا الْحَمْدُ

وهكذا يضفي الشاعر عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده التي تسمع خلال
أبياتها رنة الإخلاص ، وتشيع في تضاعيفها نبضات الحب لملك خلصه من السجن
ثم رفعه إلى مراتب الوزارة والأمر والنهي ، فلا عجب أن نراه يصوغ ألفاظه درراً في
مدائحه فيقول :

مَلِكٌ لَدَدْ جَنَى الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وِرْدُ الْأَمْنِ لِلصِّدْقِ عَلَلُ
يَا بَنِي جَهْوَرِ الدُّنْيَا بِكُمْ حَلَيْتُ أَيَّامَهَا بَعْدَ الْعَطَلُ
نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ جَدَدْتُ عَهْدَ الرَّبِيعِ الْمُقْتَبَلُ
زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَابْتَسَمْتُ كَابْتِسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لَوْلُو طَلُ^(٢)

وعندما نكب بنو ذكوان سنة ٤٤٠ هـ ، وهي الأسرة التي ينتسب إليها أستاذه
القاضي أبو بكر بن ذكوان أرسل الشاعر إلى أبي الوليد مدحة^(٣) نستثم من خلالها
قلق الشاعر وعدم اطمئنانه لمستقبله . فهل بدأ يخشى أن يصيبه من الابن ما أصابه
من الأب ؟ وما معنى هذا التضرع الذي نقرؤه خلال هذا البيت من القصيدة
المذكورة ؟ :

لَا تَسْتَجِزْ وَضَعْ قَدْرَ بَعْدَ رَفْعِكُهُ فَاللَّهُ لَا يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِي تَضَعُ

ويبدو ، كما يشير بعض المؤرخين ، أن ابن زيدون قد أخذ منذ هذا التاريخ

(١) الألى : النعمة وجسمها آلاء . سرد : تتابع .

(٢) الديوان ص ٦٢ - ٦٥ .

(٣) الديوان ص ١٣٠ .

يخترسيده وتعتوره الوسواس ، إذ رآه يصغى إلى أقوال الوشاة الراغبين بتنحيته عن مركزه .
وأكبر الظن أن سبب جفاء أبي الوليد لابن زيدون ما كان من أمر نكبة بنى
ذكوان . أصدقاء الشاعر ، عندما حاول بعض منهم الوثوب على السلطان بقرطبة .
فكان أن أحاطت بالشاعر الشبه ، فحاول أن ينفيها عن نفسه بالقصيدة المشار إليها .
وفي هذه الفترة يحدث أن يرسله أبو الوليد سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى
بمالقة فيطيل الثواء هنالك ويتقرب من إدريس ، فيعتب عليه أبو الوليد ويصرفه
عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس . وهكذا تنقطع أيام الشاعر عن قرطبة ،
ولا يعود إليها خشية من أبي الوليد بن جهور الذى أرسل إليه يتهدده بعد أن تابع
خصومه في إيغار صدر أبي الوليد عليه ، فيقصد بلنسية ويستقبله أميرها أبو عبد الله
ابن عبد العزيز استقبالا حسناً ، ولكنه لا يقيم فيها طويلاً ، وقد أسف على فراق
أبي عبد الله في قصيدة نقرأ فيها هذه الأبيات :

راحت فَصَحَّ بها السقيم رِيحٌ معطرَةٌ النسيمِ
مقبولةٌ هبتَ قبوُّ لَأَ فهى تَعَبَقُ فى السَّمِيمِ
أَفْضِيضُ مسكٍ أو بَلَدٌ سِيئةٌ لَرِيأها نَمِيمِ
بلدٌ حبيبٌ أَفْقُهُ لَفْتى يَحُلُّ به كريمِ

* * *

مهما ذممتُ فما زما نى فى ذِمَامِك بالذمِ
زمنٌ كَمَا لَوْ الرِّضَا ع يشوق ذكراه الفَطِيمِ
الله يعلم أَن حَبِّكَ من فوَادى فى الصمِ
ولئن تحمَلَ عنك لى جسمٌ فعن قلبٍ مقيمٍ (١)

وقد أم أيضاً طرطوشة ، في أثناء وجوده بأقصى شرق الأندلس ، وهي مدينة قائمة على البحر الأبيض من أعمال بلنسية ، وفيها قال هذين البيتين متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأقصى الشرق يشكر للصبا تحمُّلها منه السلام إلى الغرب
وماضراً أنفاس الصبا في احتمالها سلام هوى يهديه جسم إلى قلب

ثم يقصد بطليوس في الغرب فيلاقي من أميرها من الاحتفاء ملاقاه من أمير بلنسية ، وكان قدومه إليها في عيد الأضحى سنة ٤٤١ هـ فهاجه أن يرى نفسه وحيداً فتذكر معاهده في قرطبة ، وأخذ يعدّها معهداً معهداً ، ويتحسر على أيامه الخوالي في قصيدة نظمها في هذه المدينة ، مطلعها :

خليلاً لا فطر يسرُّ ولا أضحي فمأحال من أمسى مشوقاً كما أضحي^١

والقصيدة تم عن شوق الشاعر وأساه ، وتصوّر ما أثارته الذكرى في نفسه من الحب والحنين لمدينة ترعرع فيها حبه ، وقضى فيها أيام شبابه وسعادته وشقائه . وقد نظم أيضاً في هذه المدينة قصيدة أخرى تصور صبابته وشوقه وهي أرجوزة مطلعها :

يادمع صب ما شئت أن تصوبيا ويا فوادي أن أن تذوبيا^(٢)

وقد لاقى ابن زيدون من المظفر صاحب بطليوس كل إكرام مما جعل لسانه ينطق بشكره ، وقد كتب إليه أيضاً قصيدة ورسالة نجدهما في ديوانه^(٣) :

وهكذا لم يستطع هذا التنقل والرحيل أن ينسيه حبه أو يشغله عن هواه ، فظل في حنين دائم وتلهف مقيم .

ولكن ابن زيدون كان يتطلع إلى بلاط أوسع مما رأى ليرضى طموحه ،

(١) الديوان ص ٥٤ .

(٢) الديوان ص ١٩ .

(٣) ص ١٢٢ و ص ٣٤٦ .

فصحت عزيمته على الرحيل مرة ثانية إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية ، الملك الذى كان الأدباء يجردون فى كنفه عطفاً ورعاية . وفى سنة ٤٤١ هـ ، رحل إليه بعد أن تأكد برسائل أرسلها إلى المقرئين من المعتضد وإلى المعتضد نفسه أنه سينزل على الرحب والسعة .

ابن زيدون فى بلاط بنى عباد :

ها هوذا ابن زيدون فى إشبيلية مرة أخرى يرعاه المعتضد ويحتفى به احتفالاً رائعاً ، وقد ولاه الوزارة ولقبه بذى الوزارتين وأسبغ عليه الخلع ، وقلده أمور دولته واستكتبه « فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد شرق الأندلس فيقال تأتى كتب من إشبيلية دى بالمنظوم أشبه منها بالمنثور»^(١) . وقال ابن زيدون فى أمره أحسن المدائح نجدها منشورة فى ديوانه ومنها قصيدته التى قالها فى عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، ولعالمها من خير ما ائحه ومطلعها :

أَمَا فى نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفَ مُعْرِفٌ

لَنَا هَلْ لِدَاتِ الوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفٌ^(٢)

ولا يقتصر الشاعر فى هذه القصيدة على مدح المعتضد بل يبتدئها بمطلع غزلى رأى فيه ابن خاقان فى قلائده أنه حين لولادة ، ونحن إذا ما تدبرنا هذا المطلع الغزلى لم نجد فيه ما يجعلنا نعتقد بأنه قيل فى ولادة . وهو فى جملته غزل تقليدى تفتتح به عادة قصائد المدح على الرغم مما يشيع فيه من أصداء خافتة لشاعر عرف العشق واكتوى بناره .

وقد بقى ابن زيدون وزير المعتضد وشاعره المفضل إلى أن توفى سنة ٤٦١ هـ ، فلما تولى الملك ابنه المعتمد (وكان له من العمر ثلاثون عاماً) حظى بالمكانة نفسها التى كان يتمتع بها عند أبيه ، ولا عجب فى ذلك فقد رأينا المعتمد شاعراً محبباً للأدباء

(١) الذخيرة ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الديوان ص ٢٣ ، الجزع : منعطف الوادى . الوقف : السوار من العاج وغيره .

وكان بلاطه قبلة كل أديب وموئل كل فنان عبقرى . وقد حاول أعداء ابن زيدون بعد وفاة المعتضد الإيقاع به ولكن المعتمد لم يصنع لأقوال هؤلاء الأعداء ، فبقي أثيراً عنده ، وقد حفظ الشاعر للملكه هذا الموقف النبيل فدحه بقصيدة عرض فيها بحساده ونعمتهم بالبغاة ومطلعها :

الدهرُ - إن أَملى - فصيحٌ أعجمٌ يُعْطى اعتبارى ما جهلتُ فأَعلمُ

إن الذى قَدَّرَ الحوادثَ قَدَرَهَا ساوى لديه الشهدَ منها العلقمُ (١)
ولابن زيدون مدائح كثيرة جليلة غير هذه ، وله معه مداعبات ومساجلات نجدتها فى ديوانه .

وهكذا فقد كانت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد مفعمة بالمسرة والهناء ، ولم يكن ليشجيبها إلا أطياف حب قديم مقيم . وكانت إشبيلية تضمه بشعرها وغنائها وطوها وخمرها وتبسط أمامه هو الحياة وعز السلطان ، ويكنى أنه كان فى بلاط المعتمد وقد اجتمعت فيه مباحج الدنيا ولذاتها .

ولكن هذه الخطوة العظيمة التى تمتع بها ابن زيدون عند المعتمد لم تستطع أن تنسبه قرطبة أو أن تحدد من شوقه إليها ، ولعل الشاعر كان يغرى ملكه بالاستيلاء عليها ، وحدث سنة ٤٦٢ هـ أن المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، قد هاجم قرطبة يريد احتلالها فاستنجد ملكها أبو الوليد ابن جهور بالمعتمد فأرسل جيشاً يقوده أحد أبنائه . فما كان من جيش المأمون إلا أن ينسحب بينما نزل جيش بنى عباد فى ضاحية المدينة وأخذ يتصل بأهل قرطبة حتى ثار هؤلاء على ابن جهور واستولى الجيش الإشبيلي على قرطبة ونادى أهلها بالمعتمد ملكاً عليها .

وهكذا يعود ابن زيدون مع ملكه إلى قرطبة قرير العين برؤية أهله ووطنه فيرتفع حظه ويزداد إقبال الدنيا عليه ويبلغ من الخطوة عند المعتمد ما يجعل وزيره ابن مرتين وابن عمار يكيدان له ويسعيان فى إبعاده . وتساعدهما الظروف ،

فتحدث فتنة في إشبيلية ويضطر ابن عباد لإرسال جيش كثيف بقيادة ابنة سراج الدولة بن عباد ، إلا أن ابن مرتين وابن عمار يسولان للمعتمد أن يرسل معه ابن زيدون ، ففي إرساله نجاح لمهمة سراج الدولة وحقق للدعاء لما له من المحبة في قلوب أهل إشبيلية . وفي الواقع لم يكن يقصد الوزيران من وراء ذلك إلا إبعاد ابن زيدون ليصفوا لهما الجو ويفردا بالمعتمد بعد أن ساءت لهما الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها الشاعر في قرطبة .

وهكذا يغادر ابن زيدون قرطبة على الرغم من مرضه برفقة سراج الدولة والجنود قاصدين لإشبيلية وذلك في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٤٦٢ ، ويترك ابنه أبا بكر بن زيدون خلفاً له في الوزارة ، ولكن ابن مرتين وابن عمار ما زالوا يسعيان لدى المعتمد حتى أصدر أمره إلى أبي بكر بن زيدون بأن يلحق بأبيه إلى إشبيلية ، فكأن ابنه قد لحقه ليشهد موته ، ويعتنى بتشييعه ودفنه فيها . وفي الواقع فقد كانت هذه الرحلة سبباً في تعجيل موته ، إذ ساءت حالته الصحية يوماً بعد يوم ، فهلك بعيداً عن المدينة التي أحبها ، في الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة ، وكان لنبا موته رنة أسي في قرطبة ، وحزن عليه أهلها حزناً كبيراً . وصمت ذلك الصوت الذي غنى حياته ، بآلامها وحبها وعزها ، شعراً خالداً .

الفصل الثالث

آثار ابن زيدون وأدبه

الديوان :

لابن زيدون ديوان نشره في القاهرة سنة ١٩٣٢ الأستاذان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة^(١). وإنما لنجد في نهاية هذه الطبعة قسماً من رسائل الشاعر مع طائفة من الأبحاث عن حياة ابن زيدون وشعره بقلم طائفة من الأدباء القدماء والمعاصرين .

ومع أن الأستاذين كيلاني وخليفة قد بذلا جهداً مشكوراً في طبع هذا الديوان وكان لهما فضل سبق في أولية نشره، إلا أنهما لم يتبعا في عملهما أسلوب النشر العلمي الحديث ، فلم يصفيا المخطوطات التي اعتمدا عليها ، ولم يذكر مختلف الروايات في الهوامش ، ولم يثبتا الفهارس المختلفة التي تيسر سبيل البحث والمراجعة . وقد اعتمدا في نشر هذا الديوان ، كما علمنا ، على النسختين الخطيتين رقم ٤٩٦ أدب ورقم ٥٥٥ أدب ، المحفوظتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة^(٢).

والديوان ، كباقي دواوين الشعر العربي ، ليس فيه ما يدل على الدافع والظروف التي قيلت فيها القصائد إلا بعض الإشارات العابرة في تقديم بعضها . وقد

(١) طبع هذا الديوان أيضاً في بيروت سنة ١٩٥١ ، والطبعة ناقصة ، وهي بإشراف مكتبة صادر. وفي سنة ١٩٥٧ قام الأستاذ علي عبد العظيم مدير إدارة المخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة بطبع ديوان ابن زيدون طبعة علمية مع رسائله النثرية ، وقد شرح قصائده ونصوده وحققها وعلق عليها ووضع له مقدمة طويلة عن حياة الشاعر وشعره ونثره ، ويؤسفنا أننا لم نطلع على هذه الطبعة إلا بعد إعداد بحثنا وكان اعتمادنا فيما دوناه على طبعة الأستاذين كيلاني وخليفة .

(٢) أشار المستشرق بروكلان إلى هاتين المخطوطتين في كتابه « تاريخ الآداب العربية » الملحق الأول ص ٤٨٠ ، وأشار أيضاً إلى مخطوطة للقصيدة الشهيرة محفوظة في أكسفورد . ولديوان ابن زيدون ، عدا المخطوطتين السابقتين ، نسختان خطيتان محفوظتان أيضاً بالقاهرة : إحداها النسخة رقم ٧٦ شعر تيمور بالمكتبة التيمورية ، والأخرى النسخة رقم ٤٤٣ أدب بمكتبة الأزهر .

توانت القصائد أيضاً دون نظام ، ولم يراع فيها الترتيب التاريخي ، وهذا عيب من عيوب دواويننا الشعرية يجعل دراسة شعر الشاعر والغوص على أسرار عبقريته محاطاً بكثير من الصعوبات .

ويلاحظ أن الأغراض الأساسية التي عالجها الشاعر هي الغزل والمديح والاستعطاف ، ولعمري إنها لموضوعات تتجاوب مع قصة حياته . ويزى أن المديح يشغل معظم صفحات الديوان ويليه الغزل ثم الأغراض الثانوية الأخرى .

الرسالة الهزلية :

طبعت هذه الرسالة لأول مرة مع ترجمة لاتينية سنة ١٧٥٥ في مدينة ليبسك من قبل المستشرق رايسك . وطبعها المستشرق هيرت مرة ثانية في إيبينا سنة ١٧٧٠م . وقد شرحها ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م وطبعت في القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ تحت عنوان « شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، ولهذا الشرح عدة مخطوطات موزعة في المكتبات الأوروبية .

وقد ذكرنا أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لمنافسه ابن عبدوس يهزأ به ، وقد جاءت رسالة طريقة جمعت بين أفانين الهكم وضروب المعرفة ، وساق فيها طائفة من الأمثال والأبيات المثورة من الشعر ، وذكر فيها الكثير من الأحداث والأعلام وأسماء الرجال .

الرسالة الجدية :

هذه الرسالة عدة مخطوطات أيضاً موزعة في المكتبات الأوروبية وفي مكتبات القاهرة والموصل . وقد شرحها الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . في كتاب سماه « تمام المتنون في شرح رسالة ابن زيدون » . ولها شرح ثان طبعه مصطفى عثاني بالقاهرة سنة ١٩٠٦ في كتاب سماه « إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون » وطبعت أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٩ م بعنوان « الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون » كما طبعت في بغداد سنة ١٣٢٧ هـ .

وقد مرّ بنا أن ابن زيدون قد كتب هذه الرسالة وهو في السجن ، يستعطف بها أبا الحزم بن جهور ليعيد إليه حريته ، وهي لا تقل جمالا عن سابقتها ، نلمح خلال سطورها الانفعال والقلق .

والرسالة مفعمة كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، وهي تزخر بالأمثال ونثر الشعر القديم واقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث .

خصائص الرسالتين الأسلوبية :

هاتان الرسالتان قويتا الصلة بحياة الشاعر ، فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب و منافسة ، والرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطف .

ونلاحظ أن الرسالة الأولى قد استطاعت أن تبلغ ما تريد من السخرية بمنافسه ابن عبدوس على رغم تكلفها والتزام السجع والصناعة فيها ، وقد تصل السخرية فيها أحيانا إلى حد سلاطة اللسان فتبعد عما يقتضيه التّكلم من رقة ودقيق تورية ، ولهذا فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح المعبر عن سخط الشاعر وألمه من منافسه الذي لعب بقلب من أحبّ ولعبت هي به .

أما الرسالة الجدية فنزعم أنها لم تستطع أن تبلغ هدفها في استعطف أبي الحزم ابن جهور ، لما في أسلوبها من تكلف وغريب ، ولما احتوته من الأسماء التاريخية والإشارات الأدبية التي تلهي القارئ وتجعله ينصرف إلى استقصاء معانيها وفهم مقاصدها وحلّ رموزها . أضف إلى ذلك أن موضوع الاستعطف يقتضى دقة في العاطفة وتلهفاً حاراً يرسم المستعطف في عذاب وضيق ، ولعمري إن هذه الصفة لا تظهر جلية في هذه الرسالة ، وإنما الذي يسيطر عليها الصنعة والمعرفة التي تتجلى خلال عباراتها ، فتأتي الرسالة متناً مشحوناً بالأمثال والوقائع والأشعار ، لا صرخة تنبض بالحسرة والتلهف والألم الدفين .

والرسالتان تعكسان خصائص أسلوب ابن زيدون في النثر ، فهو لا يلتزم السجع

دائماً . وهو لا يلتزمه في الرسالة الجدية بينما نراه يلتزمه تقريباً في الرسالة الهزلية ، ويبدو إنشاؤه فيها قليلاً ضئيلاً إذا ما قيس إلى ما يذكره من أمثال العرب وأسماء رجال التاريخ والوقائع الشهيرة .

ثم هو يكثر من الجمل المترادفة على معنى واحد ، ويظهر جلياً على أسلوبه خصائص أسلوب أهل عصره الذين جروا على طريقة ابن العميد والصاحب بن عباد والهمداني والحوارزي ، فتراه يعتمد إلى نثر الأبيات الشهيرة من الشعر وتضمينها في كتابته ، والاستشهاد بعدد كبير منها دون الإشارة إلى قائلها ، ثم إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث بلفظهما أو ببعض التغيير ، وتضمين الحكم والأمثال بنصها أو بتحوير فيها .

وعلى الجملة فأسلوب ابن زيدون في نثره قوى جزل كشعره ، وقد قلنا إنه لا يتقيد بالسجع ، ولكنه لا يترك الموازنة ، فجمله متشابهة في النغمة ، متناسقة في الطول . وقد حظيت هاتان الرسالتان بشهرة كبيرة في الأدب العربي لبراعة أسلوبهما ولما احتوتا من أفانين القول وحوادث التاريخ وأسماء رجاله ، ولما ضمتهما من الشعر الجيد والأمثال المناسبة . وإذا كنا لا نشعر عند قراءتهما بما نشعر عند تلاوة شعره من هزة وطرب ، فنحن لا نستطيع إلا أن نعجب بهذا النثر لما يبدو فيه من علم وسعة اطلاع وجزالة ، ويبقى ابن زيدون شاعراً أكثر منه ناثراً .

أغراض ابن زيدون الشعرية :

طرق ابن زيدون أكثر أغراض الشعر العربي المعروفة لعهد ، وأجاد أكثر ما أجاد في فنون الغزل والمدح والاستعطاف ، وقد كان شعره صدى لحياته ، فجاء غزله معبراً عن تجربته الغرامية ، وجاء مدحه متجاوباً مع حياته السياسية ، معبراً عن عزاها واضطرابها ، وكان استعطافه يعثور الغزل حيناً فإذا به استعطاف عاشق ذليل ، ويعثور المدح حيناً آخر فإذا به استعطاف أمير ذل يتطلع إلى المجد الذي استلب منه .

ويعدّ ابن زيدون من شعراء عهد التحرر ، وهو الطور الذي أخذ فيه الشعراء

بصدرون عن نفوسهم ويمتلون البيئة ومظاهرها دون أن يتخلوا مع هذا عن التقليد .
وقد اتسم شعره بحب طبيعة الأندلس وبخاصة قرطبة ، فجاء وصفه لها ممزوجاً بقصة
حبه التي أثرت في نفسه تأثيراً كبيراً .

فما هي أهم خصائص هذه الأغراض الشعرية ؟

الغزل :

شعر ابن زيدون الغزلي يكاد يكون النغمة التي تظهر فيها أصالة الشاعر ، فهو
شعر انبجس من صميم قلبه ، وعبر عن حبه وآلامه ، ولئن كان شعر الحب عند
ابن زيدون أقل من شعر المدح ، فقد كان يفوقه إخلاصاً وجودة ، لأنه كان
صدى لانفعالاته وتعبيراً عن خفقات قلبه . ونكاد ، بعد أن علمنا قصة
حياة الشاعر ، نستطيع أن نميز أطوار هذا الشعر ، فقد علمنا حبه لولادة ثم
هجرها له ثم يأسه منها وحنينه الدائم لها . وقد جاء شعره ممثلاً لهذه الأطوار ، ولكنه
بقي على الغالب ممثلاً لطور يأسه وحنينه الدائم وذكره الحية لهذا الحب . فقد لعب
دور الهجر في قلبه لعباً قاسياً شديداً وفجّر فيه شعر الحرقه واللوعة وشعر الذكرى
والحنين ، أما أيام هنائه وسعاده فقد كانت قصيرة ، ولذا لا نجد له إلا قليلاً
من المقطوعات التي عبرت عن هذه المناءة ، في ألفاظ بسيطة وتراكيب لينة ومعان
لم تلهيها تجربة الحب الصادق ولوعة الفراق والهجر كقوله :

هل لداعيك مجيبٌ ؟ أم لشاكيك طيبٌ ؟
يا قريباً حين ينأى حاضراً حين يغيبُ !
كيف يسلكُ مُحِبُّ زانه منك حبيبٌ ؟
إنما أنتَ نسيمٌ تتلقاهُ القلوبُ^(١)

وكقوله :

متى أبثُّك ما بي يا راحتي وعذابي
 متى ينوبُ لساني في شرحه ، عن كتابي
 الله يعلمُ أني أصبحتُ فيك لما بي
 فلا يطيبُ منامي ولا يسوغُ شرابي^(١)
 وكقوله :

يا ليلُ طُل ، لا أشتكى - إلا بوصلِ قِصرِكَ
 لو بات عندى قَمَرِي ما بتُ أرعى قَمَرِكَ
 يا ليلِ خَبِرْ ؛ أنى ألتدُّ عنه خَبَرَكَ
 باللهِ قلْ لى : هلْ وفى ؟ فقال : «لا ، بلْ غَدَرَكَ»^(٢)

فمثل هذه الأبيات ، يجيبها إلى النفس رقتها وما تعكسه من قلق يغمره الرضى ، ولكنها لا تلهب النفس لأنها لا تصور حباً عميقاً مقيماً .
 هذا التصوير علينا أن ننشده في الأشعار التي قالها أيام الهجرة واليأس والذكري ونجد شاعرنا قد اقتصر في أول أيام الفراق على شكوى جياشة باللوعة والحسرة ، ولنلمح هذه الشكوى خلال ألحان يردد فيها أمثال هذه الأبيات فيقول :

كم ذا أريدُ ولا أُرَادُ يا سُوءَ ما لَقِيَ الفؤادُ!
 أُصْفِي الودادَ مُدَلِّلاً ، لم يَصِفْ لى منه الودادُ
 يَقْضِي عَلَى دلاله - فى كلِّ حينٍ - أو يكادُ

(١) الديوان ص ٢٦٤ .

(٢) الديوان ص ٢٧٢ .

كيف السلوُّ عن الذى مشواه ، من قلبى ، السوادُ؟
 ملكَ القلوبَ ، بحُسْنِهِ ، فلها إذا أمرَ انقيادُ
 يا هاجرى كم أستفِيه دُ الصبرَ عنكَ فلا أفادُ
 هلاً رثيتَ لمن يبييتُ وحشومُ قَلْبَتِهِ السُّهادُ؟
 إن أجن ذنباً فى الهوى خطأً فقد يكبو الجوادُ
 كان الرضى ، وأعيذه ، أن يعقب الكونَ الفسادُ^(١)

ثم يشتد على شاعرنا ظلام المهجر والبعاد فإذا به ين فى شعره ويستصرخ محبوبته فى لحن كله ارتعاج وذكري . ويدخل السجن ، وهو على هذه الحال . وتعلج فى جوانحه تباريح الهوى . يأخذ منذ هذا التاريخ يرسل الشعر مناجاة وذوب نفس معذبة .

هذه النفس المعذبة المحبة لم تنس غرامها ، بل لعلها كانت تجد فى النسيان لتلك النشوة الحبيبة التى يشعر بها المحب المخلص ، ولهذا ما كانت لترغب فى النسيان بل ما كانت لترغب فى الاستسلام إلى اليأس :

كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضهُ وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا
 بنم وبناً فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم وما جفت مآقينا
 نكاد حين تناجيكُم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسسنا

وعلى هذا اللحن من الغزل الرقيق صاغ ابن زيدون أكثر شعره الخالد ولا سيما فى قصيدته النونية الشهيرة التى أشرنا إليها ، وفى قصيدته القافية التى جعل الطبيعة فيها مسرحاً لنجواه الغرامية فقال فى مطلعها :

إني ذكركِ بالزهراء مشتاقاً والأفق طلقٌ ومرأى الأرض قدراقاً
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنه رقٌّ لي فاعتلَّ إشفاقاً
والروضُ عن مائه الفضيُّ مبتسمٌ كما شققتَ عن اللباتِ أطواقاً

هذا الشعر الغزلي لم يكن كله جديداً ، فقد عزف ابن زيدون في معانيه وصياغته على قيثارة القدماء ، إلا أنه استطاع أن يمنحه لوناً خاصاً عندما جعله شعراً للحنين وللذكرى ، ولهذا فالميزة الأولى لغزل ابن زيدون هي في هذه القفزة التي كان يقفزها إلى الماضي فيصور لنا بالمقارنة سعادة الحب الآفل وعذاب الهجر المقيم ، ثم يمنحنا لحناً للمناجاة يشيع منه الإخلاص ويصور حباً لا يفنى في قلب عاشق يحيا بالذكرى ويبقى للحب .

المدح :

مدح ابن زيدون متصل بحياته السياسية أشد الصلة ، ولذا إذا تقصينا مدائحه استطعنا أن نرسم جانباً هاماً من هذه الحياة ، فقد اتصل ابن زيدون أول ما اتصل بأبي الحزم بن جهور ، ثم لم يلبث هذا الأمير أن قذف به إلى السجن ، كما رأينا ، فأخذ الشاعر يرسل إليه مدائحه مستعظفاً مسترحماً كما يرسل إلى ابنه أبي الوليد ، وهذه المدائح تتصف بصفة الاستعطاف ويبدو فيها الشاعر شاكياً يريد أن يدفع عنه التهمة التي أودت به إلى السجن كما في قصيدته التي أرسلها إليه في نهاية الرسالة الجدية ، وفيها نقرأ هذه الأبيات :

أيُّهَذَا الوَازِيرُ هَا أَنَا أَشْكَوُ وَالْعَصَا بَدءُ قَرَعِهَا لِلْحَلِيمِ (١)
مَاعَتَانَا أَنَّ يَأْنِفَ السَّابِقُ الْمَرَّ بَطَّ. فِي الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ (٢)

(١) في هذا البيت تضمين للمثل العربي : « إن العصا قرعت لذى الحلم » ، وهو يضرب للذكي إذا نهته انتبه .

(٢) السابق : الفرس ، العتق في الخل : الكرم ، والتطهيم : الجمال فيها .

وبقاء الحسام في الجفن يثنى منه بعد المضاء والتصميم
 أفصبر مئين خمساً من الأيا م ؟ ناهيك من عذاب ألم !
 ومعنى من الضنى بهذات نكأت بالكوم قرح الكوم (١)
 سقم لا أعاد فيه وفي العا ند أنس يفى ببرء السقيم
 نار بغى سرى إلى جنة الأم ن لظاها ، فأصبحت كالصريم (٢)
 بأني أنت ! إن تشأ ، تك برداً وسلاماً كنار إبراهيم

ويضرب الشاعر على هذا الوتر في أكثر مدائحه لأبي الخزم ، ولكنه يمزجها بتعداد مآثره وصفاته في شيء من الفتور ، وطبعي ألا نرى الشاعر مندفعاً في مدح أميره وهو الذي ألقى به إلى السجن .

أما مدائحه في أبي الوليد بن جهور فهي تم عن إخلاص الشاعر وجهه له ، وليس هذا عجباً فنحن نعلم فضل أبي الوليد على الشاعر في خلاصه من السجن ، ونعلم الخطوة الكبرى التي نالها بالقرب منه ، بعد وفاة أبي الخزم .

ثم تأتي بعد ذلك مدائحه التي قالها في إشبيلية وأهداها خاصة للمعتضد والمعتمد ، ففي هذا الدور من حياة ابن زيدون ترتفع مدائحه إلى ذروة كمالها الفني وتعبّر عن صادق عواطفه نحو هذين الملكين اللذين أحسنا رعايته وبوآه أرفع المناصب .

وللشاعر مدائح أخرى قالها في بعض ملوك الطوائف ووزرائهم عندما زارهم في أثناء تجواله في طرطوشة أو بطليوس أو بلنسية وقبل أن يستقر في بلاط بني عباد ، وهي مدائح يبدو عليها النضج والإخلاص ، وله أيضاً مدائح أخرى في بعض أصدقائه وأساتذته .

(١) هنات : الشدائد ، الكوم : الجروح .
 (٢) كالصريم : كالليل في السواد بعد الاحتراق .

هؤلاء هم أشهر ممدوحيه فما هي الصفات العامة التي سيطرت على مدح الشاعر؟
لم يكن مدح ابن زيدون طلباً للمال وإنما كان طلباً للجاه ، كما كان في
بعض المواقف تعبيراً عن عاطفته ، وقد جرى فيه على ما ألقه الأقدمون من ركوب
البحور الطويلة واللجوء إلى النظم الرصين الجزل . واستهل على الغالب مدائحه بالغزل
ثم أخذ يعدد محامد الممدوح ومآثره متبعاً الطريقة التقليدية ، ولذا نجده مترسماً في
مدحه أساليب القدماء لا يجيد عنهم كثيراً ، ولا تبدو عبقرية الشاعر إلا في
القصائد التي أملتها العاطفة ، ومن هنا كانت مدائحه في المعتضد والمعتمد وبعض
مدائحه في أبي الوليد أفضل شعره في هذا الغرض .

الاستعطاف والشكوى :

وشعر الاستعطاف والشكوى على قلته يُعدّ من الأغراض التي أجاد بها شاعرنا
وصدّر بها عن عاطفته ، وهذا الشعر مبثوث خلال غزله ومدحه ، كما قلنا ، وقلما
انفرد في قصائد خاصة ، إلا ما نجده في تلك القصيدة الخالدة التي أرسلها إلى
صديقه أبي حفص بن برد والتي كانت درةً في نسجها ونغمتها الصافية الهادئة
المتألّة .

بقية الأغراض :

يبقى ابن زيدون في أغراضه الأخرى : كالرثاء مثلاً ، ضيق النفس فاتر
العاطفة ، ورثاؤه قاله على الغالب في بعض ممدوحيه أو من يلوذ بهم فجاء بكاءً
على الراحل ولكنه وسيلة لمدح المقيم كما فعل في رثاء أبي الحزم بن جمهور^(١) ، أو في
رثاء أم المعتضد وابنته ، أو في رثاء المعتضد نفسه^(٢) .

على أنه ينبغي أن نشير في النهاية إلى عدد من المقطوعات قالها في مناسبات
مختلفة كالتفاني والإخوانيات . وقد نظم أيضاً عدداً من المقطوعات الخفيفة في

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) انظر الديوان ص ٧٥ و ١٤٠ و ١٧٤ .

الأغراض والأحاجي أجابه عليها المعتمد محاوراً وفاكها لمعنياتها ، ولكنه في جميع هذه الأغراض الثانوية لم يصدر عن حسه ولم يستلهم شاعريته .

خصائصه الفنية :

إن الخاصة الأولى التي ميزت شعر ابن زيدون هي أن هذا الشعر شديد الصلة بحياة الشاعر . فقد رأينا ابن زيدون محباً لولادة مشغوقاً بها، ورأيناها أيضاً خلال هذا الحب يتقلب في مناصب الحكم والوزارات ويندس في حمأة السياسات ، ثم يُلقى به في السجن ، ثم تعود إليه الحرية ويواصل لعب دوره في قصور الأمراء مقرباً منهم معزراً في ظلال عطفهم ورعايتهم ، أو بعيداً عنهم طريداً . فجاء شعره صورة لهذه الحياة التي يتوزعها الحب والسخطان . فيمكننا إذاً أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : فهو يبدو لنا شاعراً ذاتياً من ناحية ، ويبدو لنا شاعر بلاط ، من ناحية أخرى ؛ ففي أي الوجهين تتجلى عبقرية ابن زيدون ؟ وهل تتجلى في الوجهين معاً ؟ وهل خضع للشروط التي يجب أن يتصف بها هذان الشاعران اللذان اجتمعا في نفسه ؟

أما الشاعر الذاتي فيتجلى في غزله وطوه واستعطافه وشكواه . ولئن كانت الحياة التي عاشها قد فرضت عليه هذا اللون من الشعر فإن تجاربه النفسية قد عدتها ومنحتها صورتها الجديدة . في هذه الأغراض لم ينظم شاعرنا الشعر لإرضاء شخص آخر غير نفسه ، ولئن كان يرغب من وراء غزله إرضاء تلك التي يحبها ويود استعطافها ، فذلك لأنه يرى فيها صدى لانفعالاته وسبباً لبقائه في هذه الدنيا . إنه محب ، ونحن نعلم حبه لولادة ، هذا الحب الذي تراءى لنا لاهياً عابثاً في مطلعته ، ثم لم يلبث أن انقلب إلى جذوة نار تأكل قلب الشاعر عندما شعر بالازرار واللعب والاستهزاء يصيبه منها ، وهنا بدأت تجربة الإخلاص ، لأنه بدأ يشعر خلالها بلذة قد تعوّض عليه ما فاتته من حب ضائع ، إنه بقي يذكرها طول حياته . حين لم تحفظ ودّه ، وتغيرت عليه ، وأنزلت في قلبها منافسه . هذه الذكرى الدائمة الطويلة تمنح هذا الشعر الذاتي لوناً يجيبه إلى نفوسنا . ففيه الصدق ، وفيه شيء آخر ليس بالأئين الممض الذي اعتدنا سماعه من شعراء الغزل العذري ،

إنه بكاء ولكننا لا نسمع النحيب ، ولا تعزينا الكتابة . إنه شوق وطفقة ، إنه شعر يرسم أجواء الماضي . . . فخاصة غزل ابن زيدون في أنه يرسم لك ذلك الجو الضاحك الآفل ، فتتحسر عليه وتلهف .

ومن يسمع الأبيات الآتية يدرك معنا أنها تعبر عن هذه الحسرة وهذه اللفظة خير تعبير على رغم سداجة المعاني التي تضمنتها ، يقول :

أضحى التنائي بديلاً من تدائنا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا
من مُبلِّغِ المُلبِّسِينا بانتزاحِهِمْ حزناً مع الدهر لا يبلى ويُبَلِّينا
أَنَّ الزمانَ الذي مازالَ يُضحِكنا أنساً بقُربِهِمْ قَدْ عادَ يُبكِنا
غِيظَ العِدامِ تَساقِينا الهوى فدَعَوْا بأنَّ نَعَصَّ فقال الدهرُ آمينا

* * *

ياسارى البرق غادِ القَصْرَ واسقِ به من كان صِرْفَ الهوى والودِّ سَقِينا
ويا نسيمَ الصِّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتِنَا من لَوْ على القُربِ حَيًّا كان يُحِينا

* * *

يا جنةَ الخلدِ أبدِلنا بِسِدْرَتِها والكُوثرِ العَذْبِ زَقوماً وَغَسَلِينا
كأننا لم نَبِتْ والوَصْلُ ثالِثنا والسَّعدُ قد غَضَّ من أجفانِ وإشِينا
سِرَّانِ في خاطرِ الظلِّماءِ يَكْتُمنا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفْشِينا

* * *

هذه أبيات تقع في نفوسنا موقعاً حسناً ، فما هي هذه الأمور التي جعلتنا مع باقى القصيدة تسهوننا ؟ أهى المعاني ونحن نراها بسيطة سادجة أكثرها مطروق ، أم هذه الديباجة السهلة ، البعيدة عن التكلف والصنعة ، أم هذه الموسيقى التي

تنساب خلال هذه الأبيات ، أم ما تحييه في نفوسنا من عواطف تتجاوب مع عواطف الشاعر ؟ والحق أن هذه القصيدة تكوّن عالماً شعرياً ، وإذا كان الشاعر لا يبلغ ذروة الشعر إلا عندما يحقق ما يسمى بـ «التجاوب الموسيقي» ، فهذه القصيدة حققت هذا التجاوب ، لأنها رمتنا بلين ورقق في البحر الذي يتلهف له الشاعر ودوت موسيقاها في أجزاء نفوسنا ، وأملت علينا عاطفته ، وأسكرتنا بنشوته . وترانا ، بعد أن استطاعت هذه القصيدة تحقيق رسالة الشعر ، عاجزين عن تجزئة عناصرها الفنية التي اشتركت في إحداث هذه اللذة البديعية في نفوسنا ، فالعالم الشعري لا يمكن تجزئته ، ولهذا كان بعض نقادنا حيناً يحاولون في تقديم هذه التجزئة يبتعدون عن فهم أسرار الجمال الشعري ويحصرون أنفسهم في دراسات بلاغية ضيقة .

لا شك في أن هذه القصيدة خير ما قاله ابن زيدون ، ولكن هل يقرب باقي شعره الذاتي من جمال هذه القصيدة ؟ يمكننا الإجابة عن ذلك بالنفي إذا استثنينا قصيدته التي مطلعها «إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً» وقصيدة أخرى أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد شاكياً سوء حظه وبعض المقطوعات والمطالع الغزلية . أما باقي شعره الذاتي فلا يبلغ هذه الإجابة المحلقة كما لا ينحدر إلى الإسفاف ، ولكنه يبقى صدى لتجاربه القلبية العنيفة ولما انتابه من ألم في سجنه وتقلب في أيامه فشكا الدهر ساخطاً حيناً ، مستعظماً حيناً آخر . على أنه من الخير لنا ألا نبحث عن عبقرية ابن زيدون إلا في شعره الذاتي الذي عبر فيه عن هواجس قلبه وعمما جاش فيه من لواجع الحب والألم ، في هذا الشعر خضع لشرطه الأوحده ألا وهو الإصغاء لحديث النفس وهمسات الفؤاد . ثم جاءت الألفاظ والأوزان والصور دون كد . عفو البديهة والخطاط .

أما الوجه الثاني الذي تقنع به ابن زيدون فهو وجه شاعر البلاط ، فقد دفعه إلى هذا الموقف طموحه وظروفه فاتخذ له العدة اللازمة ورأيانه يخضع لصفات شاعر القصر ، بل لعله تدرّب عليها منذ نشأته ، فهو إلى جانب ميله الطبيعي إلى هذه الحياة المرفقة ، يتمتع بثقافة شعرية ونثرية تجعل منه شاعراً نائراً يستطيع

أن يشغل هذا المقام ، ولعل لحظة الشعراء المداحين الشرقيين كالمثني مثلاً والمكافئة التي تمتعوا بها كانت تغريه دائماً بالسير على منهاجها وشروطها ، لذلك ذابت شخصيته في مدح الملوك الذين تقرب منهم طمعاً بالجاه لا طمعاً بالمال فأخذ يعدد فضائلهم على طريقة المداحين التقليديين في المشرق والمغرب ، ورأيانه يطلب عون بلاغته ولغته وفنه فيأتيه طائعاً منقاداً ولكن العاطفة كانت تعوزه على الغالب . ومع هذا لا يمكننا أن نقول إنه قد هوى فقد استطاع أن يقوم بمهمة شاعر القصر خير قيام ، إذ لا شأن للعاطفة في هذا المضمار وإنما الشأن للبلاغة والمقدرة الفنية . وقد كان شاعرنا مالكاً زمامهما . ومن الخطأ أن نبحت عن أصالة ابن زيدون في إنتاجه الذي قاله بين أيدي الملوك . فعبقرية شاعرنا لا تبدو واضحة إلا في شعره الذاتي ، ومهما تنوعت المدائح وصور هذا الشعر الرسمي فإننا نراها بعيدة عن الجدة والطفرة راسفة في قيود التقليد لا تختلف عن نمط الأبيات الآتية في مدح ابن جهور ، وهي أبيات لا نزعم أنها تخلد الشاعر على الرغم من متانة أسلوبه فيها وقوة أسرته للكلام :

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّسٌ وَعَامِرَ مَعْنَى الْحَمْدِ وَهُوَ خَرَابٌ^(١)
 مُحْيَاكَ بَدْرٌ وَالْبَدُورُ أَهْلَةٌ وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبَحُورُ ثِيَابٌ^(٢)
 رَأَيْتَكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَعَلَبْتَهُمْ كَذَلِكَ جَرَى الْمَذَكِيَاتِ غِلَابٌ^(٣)
 فَفَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابٌ

• • •

وبعد ، فشعر ابن زيدون يعكس بيئته ويمثل ميلها إلى اللهو والجنون وشرب

(١) الديوان ص ٤٥ ، معمس : خفي مبهم .

(٢) ثياب : جمع ثوب وهو القدير .

(٣) المذكيات : الخيل التي بلغت تمام السن ونهاية الشباب ، وفي المثل : « جرى المذكيات

غلاب » أي تغالب الجرى غلاباً .

الحرر ومجالسة النساء ، ولولا هذه البيئة لما استطاع — وهو الوزير — أن يجاهر بحبه هذه الخباهرة ، بل لعله استمد هذه الشجاعة من صراحة معشوقته التي صورت بيئتها . هي أيضاً ، خير تصوير كما رأينا .

ولم يشذ شاعرنا عن عادات شعراء الأندلس في تأثرهم بالطبيعة فقد كانت الطبيعة مسرح حبه ، فإذا خلا إليها ذكَّرتَه رياضها بنعيم ذلك الحب في ظلها ، وكثيراً ما استمد معانيه وأخيلته الغزلية منها كما في هذه الأبيات :

يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَدَاتِ لَنَا انصَرَمَتْ بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُراقَا
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ العَيْنَ مِنْ زَهْرٍ جَالَ النَّدى فِيهِ حَى مالَ أعناقَا
كَأَنَّ أعينَهُ إِذْ عَينَتْ أَرَقِي بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمْعُ رَقراقَا
فالطبيعة تثير في نفس شاعرنا معاني الهوى وتحرك لواعجه وتصل بيه وبين الحبيبة :

الهوى في طلوع تمالك النجوم والمُنَى في هبوبِ ذاك النسيم
وإذا اضطرم الشوق في نفسه طلب إلى سارى البرق أن يياكر قصرها فيسقى فيه من كان يسقيه الهوى الخالص ، وفي هذه المخاطبة تشخيص للطبيعة وامتزاج بها . إنه ليمتزج بها عندما يحال اعتلال النسيم شكواه فيقول :

ولطالما اعتلَّ النسيم فخلته شكواى رقت فاقترضت شكواك
وهكذا فالطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان ، والحب عنده أساس لتعلقه بالطبيعة ، فيجعل الشاعر لحن المناجاة سبيلا إلى تشخيصها والارتقاء في رحابها ، وهو بهذا يقرب من بعض شعراء الرومانسية الذين صوروا حبه في أحضان الطبيعة ورشفوا في خمائلها الحب والحنان .

* * *

أما أسلوبه فهو : على الجملة ، متين رصين في مدائحه ، رشيق في غزله .

وقد تحرر أحياناً من قيود القصيدة الجاهلية ، إلا أنه لم يستطع التخلي عن مطالعه الغزلية في المدائح ، وقد يدخل أحياناً في الموضوع مباشرة ، هذا في القصائد التي يستمد وحيها من قلبه والتي تدخل في نطاق الشعر الذاتي الغنائي .

وعلى الرغم من قلة اختراعه للمعاني ، فقد وفق في بعض معانيه الغزلية فألبسها ثوباً قشيباً استمده من معين قلبه وخلجات عواطفه ، فبدت كأنها جديدة . ولكنه لم ينجح ، مع هذا ، من تكرار بعض المعاني فقاده هذا الأمر إلى الاستطراد .

ولعل أجمل ظاهرة فنية في شعره هي الموسيقى ، فتناغم الألفاظ وانسجام جرسها جعلاً لشعره وقعاً جميلاً وعذوبة في السمع ، ولعل صدق العاطفة وطبيعة الأندلس الجميلة وحفيف أشجارها وتغريد بلايلها قد اشتركت في إرهاف حسه الذوق . وهذه الموسيقى الشعرية ، إلى جانب غيرها من المميزات ، حملت بعض الأندلسيين على تلقيه ببحرئى المغرب ورأينا بعض الأديباء المعاصرين يرون هذا الرأى — على الرغم مما بين الشاعرين من فوارق — ونحن لانشك بموسيقا ابن زيدون ، إلا أننا نرى أن بين الشاعرين فرقاً كبيراً من حيث قوة الشعرية ، ولئن اجتمعا بموسيقا الشعر في بعض القصائد إنهما ليفترقان في نواح أخرى ، وما لا شك فيه أن ابن زيدون قد فتن بطريقة البحرئى ولكنه ، على الرغم من ذلك ، قد أكسبها شخصيته وصدّر في عامة صورّه عن نفسه وعبر عن شعوره ، وهو في نظرنا صورةٌ صحيحة للشاعر الأندلسى بتحليقه وكبوته ، بحريته وعبوديته .

منزلته :

أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس ، فقد كان قوى أسر الكلام ، جيد التعبير الأدبى ، يشتد ويلين في ديباجته الشعرية حسبما يقتضيه القول ويدعو إليه الغرض .

وقد أعجب الأديباء والكتاب ، منذ القديم ، بروعة نظمه ورونق أساليبه ، وجدوا لشعره موسيقا فيها الخفة والرشاقة فشبّهوا بالبحرئى . قال ابن بسام : « يقول

بعض أدبائنا : إن ابن زيدون يجترى زماننا ، وَصَدَقُوا لأنه هذا حدّ و الوليد في بعض قصائده .

وقد رأينا أن لشعر ابن زيدون جرماً وانسياً يذكرنا بجرس شعر البحري وانسيابه ، وعلوية موسيقاه .

وشعر ابن زيدون يدلّ ، فوق ذلك ، على أنه طبع بالطوابع العربية الأصيلة . وكان نتيجة لثقافة عربية متينة وتمرسٍ بشعر الأقدمين وتأليفهم ، ولذا جرى على الشائع المعروف من أساليبهم ، إلا أن شاعرنا استطاع أن يلبس أقواله شخصيته ويصدر فيها عن عصره ووجهه .

قال الدكتور شوقي ضيف : « وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عملة أندلسية جديدة ، فيها الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصلاته وشخصيته . . . وابن زيدون من خير النماذج التي تكشف لنا المنزعين ، فهو لا يخرج في شعره عن القواعد الموروثة ، وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق في الحس والحمر واللذة . فاتصاله بالماضي لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذي عاش فيه » (١) .

وإذا أردنا أن نصور هذه الحياة المنفعلة التي عاشها ، كان علينا أن نبحث عنها في شعر حبه وشكواه ، ففي هذا الشعر استطاع ابن زيدون أن يرسم لنا الهوى في عمق وعذاب وحرقة ، واستطاع أيضاً أن يدغدغنا في لحن من المناجاة والذكرى ، تاركاً في نفوسنا أصداء مرتجفة مهمة . وقصيدته النونية التي أشرنا إليها خير مثال لهذا الشعر الذي اعتصر فيه فؤاده ، وأودعه أسرار ألحانه الشجية .

وليكن ختام بحثنا هذه الأقوال التي تصوّر نواحي شعره وفنه وتفصح عن منزلته :

قال ابن بسام في كتابه « الذخيرة » :

« كان أبو الوليد - ابن زيدون - غايةً منثورٍ ومنظومٍ وخاتمة شعراء مخزوم .

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤٠ .

أحد من جر الأيام جرّاً ، وفاق الأنام طرّاً ، وصرف السلطان نفعاً وضراً ، ووسّع البيان نظماً ونثراً . إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الألفاظ والمعاني .

وقال الأستاذ كامل الكيلاني في بحث عن حياة ابن زيدون وأدبه نشره في مقدمة الديوان :

« ميزة ابن زيدون التي تكاد تفرده من شعراء العربية هي الفن . فهو شاعر فني قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً أو غواصاً على المعاني أو وصافاً . الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء في زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته . »

وقال :

« إنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل إليك لسهولته أنك تحلق في أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجون ، ثم تقرأ لإخوانياته فيخيل إليك لا . ترسالة وافتنانه في ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومي وهو يخاطب أبا القاسم التوزي بهمزيتة المشهورة ، ثم تقرأ رسالته فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ في براعة الاستخفاف والتهمك ، أو رسائل المعري في سعة الإحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال . »

وقال الدكتور أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » :

« وكل قصائد ابن زيدون التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همماً وغمماً . ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسالاته الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن ، فإنه لم يخرج عن عاداته في ضروب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دب على وجه الأرض . »

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلّاب ،

تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فإنه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يملها عليه شعوره .

وقال :

« وأقرب عبارته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم . . . ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حيناً مؤلماً ، فإذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكي وبكيت معه . »

وقال :

« إذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والأسلوب . ولقد يسمع الإنسان أنينه في شعره ، ويرى أنته الحزينة من شلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . »

وقال في نثر ابن زيدون :

« لقد عرف ابن زيدون كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون . »

الفصل الرابع

مختارات من آثار ابن زيدون

١ - الغزل

ذكرى وحنين :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنِ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا (١)
أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحْنَا حَيْنٌ فِقَامَ بِنَالِ الْحَيْنِ نَاعِينَا (٢)
مَنْ مُبْلَغُ الْمُلْبِسِينَا بَانْتِزَاحِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَأَ بِقَرَبِهِمْ قَدَ عَادَ يُبْكِينَا
غَيْظًا الْعِدَامِ تَسَاقِينَا الْهَوَى فِدَعُوا بَأَنَّ نَغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا (٣)
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِيكُمْ هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا (٤)
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيًا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَاحِقُنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا وَلَا أَنْ تُسْرُوا كَاشِحًا فِينَا (٥)

(١) التَّنَائِي : البعد وعكسه التَدَانِي . التَجَافَى : المقاطعة .

(٢) أَلَّا : لغة في هَلَا وهي كلمة تخصيص مركبة من هَلْ وَلَا . الْحَيْنُ : الموت .

(٣) نَغَصَّ بِالْمَاءِ : شَرَقَ بِهِ .

(٤) نَعْتَبَ : نَرَضَى ، مِنْ الْعَتْبَى وَهِيَ الرِّضَا .

(٥) الْكَاشِحُ : الْعَدُو .

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّبُنَا عَوَارِضُهُ وَقَدِئِثُنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا
 بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا (١)
 نَكَادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا (٢)
 حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَامُنَا فَعَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا (٣)
 إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَأَلَّفِنَا وَمَرَبِعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 وَإِذْ هَصَرْنَا غَصُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قُطُوفُهَا فَجَنِينَا مِنْه مَاشِينَا (٤)
 لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السَّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
 لَا تَحْسَبُوا نَائِكُمْ عَنَا يُغَيِّرُنَا إِنْ طَالَ مَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحْبِينَا
 وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا انصرفتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَاسَارِي الْبَرَقِ غَادِ الْقَصْرِ وَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدِّيَّ سَقِينَا (٥)
 وَاسْأَلْ هِنَالِكَ هَلْ عَنِّي تَذَكَّرْنَا إِلْفًا تَذَكَّرُهُ أَمْسَى يُعْنِينَا (٦)

(١) بِنْتُمْ : بَعْدَتْ . الْجَوَانِحُ : جَمْعُ جَانِحَةٍ وَهِيَ الْفُضْلُ ، وَالْمُرَادُ بِالْجَوَانِحِ مَا بَدَاخِلَهَا مِنَ الْقَلْبِ وَالْحِشَا . الْمَآقِي : الْعَيُونُ .

(٢) الْأَسَى : الْحُزْنُ . التَّأْسَى : التَّصَبُّرُ وَالتَّعَزُّيُ .

(٣) حَالَتْ : اسْتَحَالَتْ أَيْ تَحَوَّلَتْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ .

(٤) هَصَرْنَا : أَمَلْنَا ، وَهِيَ شَبْهُ الْوَصْلِ بِشَجَرَةٍ فَالِاسْتِمَارَةُ مَكْنِيَةٌ . الْقُطُوفُ : الثَّأِرُ الَّتِي تَجْنِي وَتَقْطِفُ . شِينَا : مَخْفَفَةٌ مِنْ شِينَا .

(٥) غَاد : بَاكَرَ .

(٦) عَنِّي : شَغَلَ .

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لوعلى القرب حيا كان يحينا
 فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة منه وإن لم يكن غبا تقاضينا^(١)

* * *

ربيب ملك كان الله أنشأه مسكاً وقدر إنشاء الورى طينا
 أو صاعه ورقاً محضاً وتوجه من ناصع التبر إبداعاً وتحسيناً^(٢)
 إذا تأود آدته رفاهية توم العقود وأدمته البرى لينا^(٣)
 كانت له الشمس ظمراً في أكلته بل ماتجلى لها إلا أحابيناً^(٤)
 كأنما أثبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويداً وتزييناً^(٥)
 ماضراً أن لم نكن أكفاه شرفاً وفي المودة كافٍ من تكافينا

* * *

يا روضة طالما أجت لواحظنا وزد أجلاه الصبا غصاً ونسريناً^(٦)
 ويا حياة تملينا بزهرتها منى ضروباً ولذات أفانينا^(٧)

(١) غبا : الغب في الزيارة الإقلال .

(٢) الورق : الفضة .

(٣) تأود : تثنى . آدته : أثقلته . توم : لآلى ، مفردها تومة وهي حبة من فضة ، وجمعها توم بفتح الواو وإسكانها . البرى : الخلاليل ، ومفردها البرة وهي حلقة الخلال .

(٤) الظنر : المرصعة . أكلة : جمع كلة وهي ستر رقيق يوضع فوق الفراش .

(٥) التعويد : الرقية .

(٦) النسرين : نوع من الورد أبيض عطرى الرائحة .

(٧) تملينا : تمتعنا وتمعنا .

ويا نعيماً خَطَرْنَا من غضارته في وَشَى نَعْمَى سَجَبْنَا ذِيلَهُ حِينَا^(١)
 لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالاً وَتَكْرَمَةً وَقَدْرَكَ المَعْتَلَى عن ذَاكَ يُغْنِينَا
 إِذَا انفردتِ وَمَا سُورِ كَتِ فِي صِفَةٍ فَحَسَبْنَا الوصفَ إِيضاحاً وَتَبَيَّنَا

* * *

يَا جَنَّةَ الخُلْدِ أُبَدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالكَوْثَرَ العذبِ زُقُوماً وَغَسَلِينَا^(٢)
 كَأَنَّا لَمْ نَبِتْ وَالوَصْلُ ثَالِثُنَا والسعدُ قد غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
 سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظلماءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادُ لِسَانُ الصبحِ يُفْشِينَا
 لَا غُرُوفِي أَنْ ذَكَرْنَا الحزنَ حِينَ نَهتِ عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكَنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا^(٣)
 إِنَّا قَرَأْنَا الأَسَى يَوْمَ النُّوَى سُوراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
 أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرِبْنَا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا^(٤)
 لَمْ نَجِفْ أَفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوَكْبُهُ سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
 وَلَا اخْتِيَاراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبٍ لَكِنْ عَدْتْنَا عَالِي كُرْهِ عَوَادِينَا^(٥)
 نَأْسَى عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مَشْعَشَعَةً فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَّانَا مُغْنِينَا^(٦)
 لِأَكْوَسِ الرَّاحِ تُبَدِي مِنْ شِمَائِلِنَا سِيمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الأَوْتَارُ تُلْهِينَا

(١) الغضارة : النعمة وخفض العيش . الوشى : ثوب ، من الحرير منقوش .

(٢) السدرة : شجرة النبق وهي كبيرة عظيمة الظل ، الإشارة هنا إلى « سدرة المنتهى » . الكوثر : نهر في الجنة . الزقوم والغسين : من أطعمة أهل جهنم .

(٣) النهى : جمع نهيَة وهي العقل .

(٤) قائلين : كارهين .

(٥) كَثَب : قرب . عدتْنَا : صرفتْنَا . العوادى : صروف الدهر .

(٦) الشمول : الخمر ، ومشعشعة : مزوجة بالماء .

دُومى على العهدِ مادُّمنا محافظَةً فالحرُّ من دَانَ إنصافاً كما دِينا^(١)
فما استعَضْنَا خَلِيلاً مِنْكَ يَحِبُّسُنَا ولا اسْتَفَدْنَا حَبِيْباً عَنْكَ يَثْنِينَا
وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ بدرُ الدجى لم يكنْ حاشاك يُصْبِينَا^(٢)
أَوْلى وِفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْنُلْى صَلَةً فالطيفُ يُقْنِعِنَا والذُّكْرُ يَكْفِينَا^(٣)
وفى الجوابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ بيض الأيادى التى مازلتِ تُولِينَا
عَلَيْكَ مِنى سَلامٌ اللهُ مابَقِيَتْ صَبَابَةٌ مِنْكَ نُخْفِيها فَتُخْفِينَا^(٤)

دراسة القصيدة

المناسبة :

جاء فى الديوان أن ابن زيدون « كتب هذه القصيدة الفذة يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته ولادة بنت المستكفى أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة » وقد نظم الشاعر هذه القصيدة فى الفترة التى تلت فراره من السجن ، أى بعد سنة ٤٣٣ هـ ، عندما رحل إلى إشبيلية للمرة الأولى . وتراءى لنا خلال أبياتها عبقرية الشاعر الفذة ونضجه الشعرى بعد أن مرَّ بتجربة السجن وآلامه وعذاب البعاد وأتراحه ، فجاءت عصارة نفس متألمة ، مقيمة على الحب ، لا تسلو ولا تنسى .

ولا جدالَ فى أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الإجابة

(١) دان : جزى .

(٢) صبا : مال . يصبيننا : يستهوننا .

(٣) أولى : أنعمى .

(٤) نخفيا فتخفينا : نسترها فتظهرنا ، أخفيت الذى وخفيتها بمعنى سترته وبمعنى أظهرته وهى

من الأضداد .

وعبرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها . فعارضها صبي الدين الحلبي والصفدي وأخيراً شوقي في قصيدته التي يحن فيها إلى وطنه ومطلعها :

يا نائح الطلح أشباهُ عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
وقد قال عنها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان : « إنها قصيدة ضربت في الإبداع بسهم ، وطلعت في كل خاطرٍ وهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم » .

أقسام القصيدة ومعانيها :

تكاد تكون هذه القصيدة وحدة شعرية لا يخرج فيها الشاعر عن دائرة قلبه المحطم ، ولكن يمكننا أن نتبين بعض الفواصل في هذا الكيان الشعري المتماثل .

١- من البيت (١ - ١٩) وصفٌ لحال الحاضر ووصف للماضي ، ويتخلل هذا القسم أبيات تؤكد الوفاء والحب المقيم والتجلد على الواقع الأليم (الأبيات ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩) .

٢- المناجاة وإشراك الطبيعة في إحساسه (٢٠ - ٢٣) .

٣- وصف المحبوبة (٢٤ - ٣٤) .

٤- عودة إلى المناجاة مع مقارنة الحاضر المقيم بالماضي الآفل وتأكيد للوفاء ينتهي إلى الاستعطاف والاستسلام لهدوء ذليل (٣٥ - ٥٠) .

١- يفتتح الشاعر قصيدته دون تمهيد ، ويقذف بنا في جو آلامه بوثة عاطفية تصور لنا حاله وما آل إليه . لقد أصبح قربه بعداً ، وأصبح المهجر والموت سواءً في نظره . ويود أن يُعلمَ ذلك الذي ألبسه حزناً دائماً يبعده عن حبيبته ، يود أن يعلمه أن ضحكته قد حال إلى بكاء . وأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه وحقق لهم ما أرادوا من إيقاع بين حبيين ، فلم يعودا يرجوان التلاقي بعد أن كانا لا يخشيان الفراق .

ثم ينتقل الشاعر إلى عرض ما يكنه من وفاء أولاده وبيثها آلامه ولوعته ، ويبين في بيت جميل أن الحزن - لولا تأسيه - يكاد يقضى عليه . ويعود إلى وصف أيام هنائه وأنسه ويقارنها بحالته الراهنة مستعيناً بالصناعات العفوية التي يملئها الفن قدر ما يملئها القلب ، فأيامه الحاضرة سود بينما كانت لياليه معها بيضاء ينال من روضته ما يشتهي ويجنى من ثمرها ما يريد ، ولكن هذه الحسرة ما كانت لتملى عليه السخط والثورة ، بل يؤكد ، في ذل ، أن التأني لا يغيره ولن ينسى ذلك العهد الرطيب ، مهما خبت جذوة الحب في قلوب المحبين النائين فقد كنتم الرياحين لأرواحنا وما زلتم تلك الرياحين .

٢ - هذه الحسرة النائحة تقوده إلى المناجاة فيطلب من الطبيعة أن تشاركه في إحساسه ، ويخاطب سارى البرق أن يياكر قصرها فيجود أهله بغيثه اعترافاً منه له على ما أعطاه من حب ومودة ، ويحمل النسيم تحيته إلى تلك التي يُحْيِيهِ سلامُها ، ويذكر خلال ذلك صوراً جميلة لماضٍ راحل وعهد حائل .

٣ - وذكر القصر يقوده إلى مَنْ يسكنه ، إلى هذا المحبوب الذى ليس كسائر البشر ، فهو صنيع الملوك وطينة من المسك ، وجسم من اللجين يكمله تاج من التبر هو ذاك الشعر الذهبى الذى كان يتوج رأس محبوبته . وأنت تلمح خلال هذا الوصف عبير القصور الملكية ، ورفاهية الحسان . ونعيم السلطان ، فجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذى تضمه الشوارع ، وإنما جمال أرسقراطى تلمح خلاله ليونة النعيم وغمضارته وتأود التمدد المرهف ورخاصته ، حتى ليديمه مس العقود والمجوهرات .

٤ - وفي غمرة هذا الوصف يتلهف على ماضيه ويعود إلى المناجاة بلحن حزين فيندب تلك الجنة التى أبعد عنها ويحنّ إلى ذلك الكوثر العذب الذى أبدل به ماءً أجناً وغمسلينا . وكم هى جميلة تلك القفزة فى الماضى يقفزها الشاعر ليحدثنا عن تلك العزلة التى كان يتمتع بها العاشقان وقد حالفهما السعد فكأنا سرّين مطويين فى خاطر الظلماء لا يفضحهما إلا لسان الصبح . نعم قد تكون الصورة قديمة فى بعض تفاصيلها كاستعارته اللسان للصبح ، إلا أننى أراها جديدة كل

الجلدة في تركيبها وصدقها فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن شخصين ماديين بكلمة معنوية جسدت الكتمان خير تجسيد ، ورسمت خلوة من خلوات الحب ، وآلف بين الصنعة والعاطفة خير تألف .

وتأتى بعد ذلك أبيات في المناجاة (البيت ٣٩ - حتى النهاية) ليس فيها ما يستدعى الوقوف ، ويبدو فيها أن الشاعر يلهث . على أن الخاتمة منطوية فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام ، وفيها تأكيد دائم على الوفاء يطلبه ممن أحب كما يطلبه من نفسه ، بل لعله لا يستطيع التخلي عن هذا الوفاء في الحب لأنه سبب من أسباب بقاءه . فليقنع بالقليل إذن ، وليودعها وفي نفسه ذلة وانكسار وفي الجوف الذى خلقه ارتجاف وحسرة ورنين .

العاطفة والأسلوب :

إن الميزة التي تبدو في أسلوب ابن زيدون هي « الفن » فهو شاعر فني قبل أن يكون حكيماً أو فيلسوفاً أو غواصاً على المعاني أو وصافاً ، وهذه الخصائص الفنية تتجلى على أصدق صورة في هذه القصيدة ، فالفاظها حلوة عذبة تلتقفها الأذن في لين ويسر وتحدث في النفس في تأليفها وتنسيقها تناغماً وجرساً يعكس عاطفة الشاعر ويعبر عنها خير تعبير ، ونرى أن أكثر الكلمات تتساند ويستدعى بعضها بعضاً ، ولئن كان الشاعر يلجأ إلى الطباق في العاطفة فإنه يلجأ إليه في اللفظ أيضاً ، لذلك رأينا هذه المزاجية في المعاني والألفاظ ، وعلى هذه المزاجية والمقابلة يقوم الكثير من جمال هذه القصيدة . ويكثر الشاعر من الألفاظ والأوزان التي تدل على المشاركة ليبين أن العاطفة هي في تجاوب مستمر ، فلا انفصام وإنما رجفة متصلة ، بين ماض حبيب وحاضر مؤلم . وما يزيد في هذه الرجفة طولاً هو هذه القافية الممدودة . وهذه (النونات الطويلة) التي تضيف إلى جرس القطعة أنيناً موسيقياً حزيناً .

وأكثر معاني القصيدة ينظر إلى معاني المشرقين ، ويدل على تعلق الأندلسيين بالمشرق ، على أن معاني الغزل لم تتحرر من التقليد في الشرق والغرب ، وما فنى

الشاعر يصف لنا ذل الغرام وقساوة المحبوبة ، غير أن واقعية التجربة الغرامية التي عاشها ابن زيدون سترت عنه الكثير من العيوب ، وجعلت القصيدا تستقى وحيها من نبضات قلب الشاعر ، وقد استطاع أن يؤلف بين هذه النبضات وبين الفن الذي تمليه عليه ثقافته وبيئته وعبوديته أحياناً . ومن هذه المعاني التقليدية مخاطبته للنسيم والدعاء بالسقيا ، إلا أن الشاعر استطاع أن يمنح عبارته فيها رنة الإخلاص ، فأحيا الطبيعة وجعلها إنساناً يشارك الشاعر آلامه ويشفق على المحبين المتباعدين .

ونجد أن أكثر أبيات القصيدا مشتمل على فنون البيان والبديع ، ولكنها ما كانت لتأتى متكلفة ، بل أحياناً ثبتت المعنى وأعطته نوعاً من التجسيم كقوله :

أَنَّ الزمانَ الذي مازال يُضحكنَا أنساً بقربكم قد عاد يُبكيُنَا
ففيه استعارة وطباق . وكقوله أيضاً :

وإذ هصرنا غصون الوصل دانيةً قطوفُها فجنينا منه ماشينا
ففيه استعارة جميلة :

وفي استعماله « الوصل ثالثنا » كناية جميلة عن عزلتهما وخلوتهما عندما يقول :

كأننا لم نبتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غصَّ من أجفانِ واشينا
سرَّانٍ في خاطر الظلماءِ يكتُمنا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشيُنَا
وإننا نجد نفحة قرآنية في هذا البيت :

ياجنة الخلدِ أبدلنا بسِدْرَتِها والكوثرِ العذبِ زقوماً وغسليُنَا
وهذا النداء في « يا سارى البرق » وفي « يا روضة » و « يا حياة » و « يا نعيماً »
يزيد في لحن المناجاة .

على أن هنالك أبياتاً ثقيلة على السمع ضعيفة الجرس كقوله :

مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَ بَانْتِزَاحِهِمْ حُزْناً مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أُنْسَاءً بِقَرَبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
 فاستعماله « الملبيين حزناً » ثقيل على الأذن ، واستعماله لكلمة « حاشاك »
 في البيت الآتي حشوٌ بغض :

وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يَصْبِينَا
 أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ ابْتِدَالُ الْمَعْنَى فِي هَذَا الْبَيْتِ السَّابِقِ . عَلَى أَنَّ الْقَصِيدَةَ
 لَا تُضِيرُهَا هَذِهِ الْهِنَاتُ وَهِيَ ، بَعْدَ هَذَا كَلِمَةٍ ، فَيَاضَةُ بِالْأَلَمِ ، حُلُوةُ الْوَقْعِ فِي السَّمْعِ ،
 مُوسِيقِيَةُ الْجَرَسِ ، مَفْعَمَةٌ بِالْحَيَاةِ ، تَرْكٌ فِي النَّفْسِ صَدَى حَزِينًا .

ذكري ولادة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة بعد خروجه من السجن وقبل العفو عنه يتشوق
 إلى حبيبته ويناجيها ويتلهف على لقاءها :

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا وَالْأَفْقُ طَلَقٌ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْرًا قَا^(١)
 وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقًا
 وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضْيُ مُبْتَسِمٌ كَمَا شَقَّتْ عَنِ اللَّبَّاتِ أَطْوَاقًا^(٢)
 يَوْمٌ كَأَيَّامِ لِدَاتٍ لَنَا أَنْصَرَمَتْ بَتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقًا
 نَلْهُوُ بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ جَالَ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقًا
 كَانَ أَعْيُنُهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرَقِّي بَكَتٌ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَقًا

(١) راق : بمعنى أعجب .

(٢) اللبات : جمع لبة وهي موضع القلادة من الصدر . والأطواق : جمع طوق وهو ما يحيط
 بالعنق من الثوب ، والطورق أيضاً من الحل .

وَرَدَّ تَأَلَّقَ فِي ضَاحِي مَنَابِتِهِ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقًا^(١)
 سَرَى يُنَافِحُهُ نِيلُوفَرُ عَبَقُ وَسَنَانُ نَبَّهَ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقًا^(٢)
 كُلُّ يَهِيحُ لَنَا ذِكْرَى تُشَوِّقُنَا إِلَيْكَ ، لَمْ يَعُدَّ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا
 لَاسْكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمْ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشُّوقِ خَفَاقًا
 لَوْ شَاءَ حَمَلَى نَسِيمَ الصَّبْحِ حِينَ سَرَى وَافَاكُمْ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى فِي جَمْعِ مَنَابِكُمْ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقًا
 يَا عَلِقِي الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَتَنِي الْأَحْجَابَ أَعْلَاقًا^(٣)
 كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوَدْمِ مُذْمَنٌ مِيدَانِ أَنْسٍ جَرِينَا فِيهِ أَطْلَاقًا^(٤)
 فَالآنَ أَحْمَدُ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ سَلَوْتُمْ وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَاقًا

التعليق :

تصوّر هذه القصيدة فتنّة الطبيعة وما يثيره جماها من صور الحبيب وجماله في
 جوّ من الذكري . ويقول الدكتور سيد نوفل عنها : إنها قصيدة « تموج فيها
 عاطفتان : عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلوة مزيداً من الحسن ، وعاطفة
 الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة . والشاعر إذا تحدث عن
 الماضي ابتسمت الطبيعة في طلاقة الأفق وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض وطرب
 الزهر وتألق الورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدث عن الحاضر تمثل له في اعتلال

(١) ضاحي المنابت : المنابت البارزة للشمس ، المرتفعة .

(٢) نيلوفر : نبات ينبت في المياه الراكدة ويورق على سطحها وله زهر يتفتح في النهار ويندم

في الليل .

(٣) العلق : الشيء النفيس الذي يعلق . الأخطر : ذو الشأن والقيمة .

(٤) التجارى : التسابق . أطلاق : جمع طلق وهو الشوط في السباق .

النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ؛ وبذلك يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكها جو الذكرى باعثاً في النفوس لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق . (شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢٦٧) .

وقال مخاطباً ولادة:-

يانازحاً وضميرُ القلب مثواه أنستك دنياك عبداً أنت دنياهُ
ألتهك عنه فكاهاتٌ تلذُّ بها فليس يجرى ببال منك ذكراهُ
علَّ الليالي تُبقيني إلى أملٍ الدهرُ يعلمُ والأيامُ معناهُ

مدام العيون :

قال ابن زيدون الأبيات الآتية يحن بها إلى ولادة ، وهي في مطلع قصيدة مدح بها أبا الوليد بن جهور عندما اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه أبي الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ للهجرة :

ما لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ فِيمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكِ
هَلَّا مَزَجْتَ لِعَاشِقِيكِ سُلَافَهَا بِيرُودِ ظَلْمِكِ أَوْ بَعْدَ لَمَاكِ (١)
بَلْ مَا عَلَيْكِ وَقَدْ مَحَضْتُ لَكَ الْهَوَى فِي أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمَسْوَاكِ (٢)
نَاهِيكِ ظُلْمًا أَنْ أَضْرَبِي الصَّدَى بَرَحًا وَنَالَ الْبِرَّةَ عُوْدُ أَرَاكِ (٣)
وَاهَا لِعِطْفِكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا صُبِغَتْ غُضَارَتُهُ بِبِيرِدِ صِبَاكِ (٤)

(١) الظلم : الريق وماء الأسنان . ويرود : بارد . اللي : سمرة في الشفة .
(٢) محضت : أخلصت . المسواك : جمعه مساويك وهو عود تطهر وتنظف به الأسنان .
(٣) الصدى : العطش . البرح : الشدة والمشقة .
(٤) الفنارة : الهبة .

والليلُ مهما طالَ قَصَّرَ طولُهُ هاتى، وقد غَفَلَ الرقيبُ، وهالك
ولطالما اعتلَّ النسيمُ فخلتهُ شكواى رَقَّتْ فاقتضتْ شكواك
إن تَأَلَّفى سِنَةَ النَّوْمِ خَلِيَّةً فلطالما نافرَتْ فى كَرَاك (١)
أَوْ تَحْتَبى بِالهِجْرِ فى نادى القَلْبى فلكمُ حَلَلْتِ إلى الوصالِ حُبَاك (٢)
أَمَّا مَنى نَفْسى فَأنتِ جميعها ياليتنى أَصَبحتُ بعضُ مُنَاك
يدنو بِوَصْلِكَ حينَ شَطَّ. مزارُهُ وَهَمُّ أَكَادُ به أَقْبَلُ فَاك (٣)
ولئن تَجَنَّبْتُ الرِّشَادَ بِغَدْرَةٍ لم يهوَ بى فى الغىِّ غيرُ هَوَاك

هففة محب :

نظم الشاعر هذه المقطوعة بعد أن هجرته حبيته ، وفيها يتلهف لو تعود إلى
الوصل ، قال :

إِلَيْكَ مِنَ الْأَنَامِ غَدَاً ارْتِيَا حَى وَأَنْتِ عَلَى الزَّمَانِ مَدَى اقْتِرَا حَى
وَمَا اعْتَرَضَتْ هَمومُ النَّفْسِ إِلَّا وَمَنْ ذِكْرَاكِ رِيحَانِي وَرَا حَى
فَدَيْتُكَ إِنَّ صَبْرِي عَنْكَ صَبْرِي ،لدى عَطَشِي ،على الماءِ الْقَرَا حَى (٤)
وَلِي أَمَلٌ لَوِ الْوَاشُونَ كَفُّوا لَأَطَّلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَا حَى
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوُّ رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَا حَى (٥)

(١) نافر هنا بمعنى عادى . الكرى : النوم

(٢) احتى : اشتعل بالثوب ، من الحبوقة وتجمع على حبي . القل البغض الشديد .

(٣) شط : بعد .

(٤) القراح : الصاق .

(٥) يريد بالعدو منافسه ابن عبدوس .

ولمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي اخْتِلَاسًا أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ (١)
 رَأَيْتَ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابِ وَغُصْنِ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ (٢)
 فَلَوْ أَسْطَيْعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ
 عَلَى حَالِي وَصَالٍ وَاجْتِنَابٍ وَفِي يَوْمِي دُنُوٌّ وَانْتِزَاحِ
 وَحَسْبِي أَنْ تُطَالِعَكَ الْأَمَانِي بِأُفْقِكَ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ
 وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَى غِيَابًا وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَّاحِ (٣)
 فَوَادِي مِنْ أَسَى بَكَ، غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي عَنْ هَوَى لَكَ غَيْرُ صَاحِ

وداع :

في هذه المقطوعة لحن حزين يعبر الشاعر فيه عن يأسه بعد أن هجرته صاحبه
 وأصبح في شقاوة اليأس وفراغ الدنيا ، يقول :

لئن قَصَّرَ اليأسُ مِنْكَ الْأَمْلُ وَحَالَ تَجَنُّبِكَ دُونَ الْحَيْلِ
 وَنَاجَاكَ ، بِالْإِفْكَ فِي الْحَسُودِ فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَاسَأَلًا (٤)
 وَرَاقِكَ سِحْرُ الْعِدَى الْمُفْتَرَى وَغَرَّكَ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلُ
 فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَنْ أَزَالَ أَبْقِيَهُ حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ
 فِدَيْتِكَ إِنْ تَعَجَّلِي بِالْجَفَا فَقَدْ يَهَبُ الرِّيثُ بَعْضَ الْعَجَلِ (٥)

(١) الحين : الهلاك .

(٢) الوشاح : حزام يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

(٣) غيباً : حيناً بعد حين .

(٤) الإفك : الكذب .

(٥) في هذا البيت تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثاً » والريث : البطء .

علامَ اطَّبَتِكَ دواعي القلي؟
 ألمَ ألزمِ الصبرَ كما أخِفَّ
 ألمَ أرضَ منكِ بغيرِ الرضا
 ألمَ أَعْتَفِرُ موبقاتِ الذنوَ
 وما ساءَ ظَنِّيَ في أَن يسيءَ
 على حينَ أَصَبَحْتَ حَسْبَ الضميرِ
 سمعتِ لتكديرِ عهدِ صَفَا
 فما عُوْفِيَتِ مِقْتِي من أَدَى
 ومهما هَزَزْتُ إِلَيْكَ العِنا
 كأنكِ ناظرتِ أَهلَ الكلامِ
 ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفَعَالِ
 فلم يكِ حَظِّيَ منكِ الأَخَسَّ
 عليكِ السلامُ سلامُ الوادِعِ
 وما باختيارِ تَسَلَّيْتُ عنكِ
 وفيمَ تَنَتَّكِ نواهي العَدَلِ؟^(١)
 ألمَ أَكْثَرَ الهَجَرَ كَيَّ لا أَمَلُ
 وأبدي السُرورَ بما لم أَنَلُ
 بِ عَمْدًا أَتَيْتِهَا أم زَلَلُ؟^(٢)
 بِى الفَعْلَ حُسْنُكَ حَتَّى فَعَلُ
 ولم تَبِعِ منكِ الأمانى بَدَلُ
 وحاولتِ نَقْضَ وِدادِ كَمَلُ
 ولا أُعْفِيَتِ ثِقَتِي من خَجَلُ؟^(٣)
 بِ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ العِلَلِ؟^(٤)
 وأوتيتِ فهِمًا بعِلْمِ الجَدَلِ؟^(٥)
 وَعُدْتُ لتلكِ السجايا الأَوَّلِ
 ولا عُدَّ سَهْمِي فَيْكَ الأَقْلِ
 وَدَاعِ هَوِي مات قَبْلَ الأَجَلِ
 ولكنني مُكْرَهُ لا بَطَلُ؟^(٦)

(١) اطبتك : استأنتك .

(٢) موبقات : مهلكات .

(٣) المقة : الحب .

(٤) ظاهر : طابق .

(٥) أهل الكلام : علماء الكلام والتوحيد .

(٦) تضمين للمثل المشهور : « مكروه أخاك لا يطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ولا في

ولم يَدْرِ قَلْبِي كَيْفَ النَزْوَعُ إلى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَاثْمَثَل
 وليتَ الذي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكَ أَبِيَّ الهَوَى فِي عِنَانِ الغَزَلِ
 يُحِيلُ عَذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَى وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلَّ

وقال :

أَنْتَى أَضِيْعُ عَهْدَكَ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْلِفُ وَعَدَّكَ
 وَقَدْ رَأَيْتَكَ الْأَمَانِي رِضَى ، فَلَمْ تَتَّعِدْكَ
 يَا لَيْتَ مَا لَكَ عِنْدِي مِنَ الهَوَى لِي عِنْدَكَ !
 فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي كَطُولِ لَيْلِي بَعْدَكَ
 سَلْنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
 الدَّهْرُ عَبْدِي ، لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الحُبِّ عَبْدَكَ

وقال :

أَرْخَصْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا أَعْلَيْتَنِي وَحَطَّطْتَنِي وَلَطَالَمَا أَعْلَيْتَنِي
 بَادَرْتَنِي بِالغَزَلِ عَنِ خِطِّ الرُّضَا وَلَقَدْ مَحَضْتِ النَّصْحَ إِذْ وُلِّيتَنِي
 هَلَّا ، وَقَدْ أَعْلَقْتَنِي شَرَكِ الهَوَى عَلَّلْتَنِي بِالوَصْلِ أَوْ سَلَّيْتَنِي
 الصَّبْرُ شَهْدٌ عِنْدَمَا جَرَّعْتَنِي وَالنَّارُ بَرْدٌ عِنْدَمَا أَصْلَيْتَنِي
 كُنْتُ الْمَتَى فَادَّقْتَنِي غُصَصَ الْأَذَى يَا لَيْتَنِي مَا فَهْتُ فَيْكَ : بَلَيْتَنِي

لا أهل ولا وطن (١) :

وقال ابن زيدون هذه الأبيات وهي من أشجى مقطوعاته في مناجاة حبيته
والشوق إلى موطنه وقد قالها نائياً عن أهله ، بعيداً عن قرطبة :

هل تذكرون غريباً عادته شجنٌ من ذكركم وجفأً جفانه الوسن (٢)
يُخني لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر والعلن
يا ويلتاه! أيبقى في جوانحه فؤاده، وهو بالأطلال مرتهن؟
وأرق العين، والظلماء عاكفة، ورقاء، قدسفا، إذسفى حزن (٣)
فبت أشكو وتشكوفوق أيكتهها وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن (٤)

* * *

ياهل أجالس أقوماً أحبهم؟ كنا وكانوا على عهدٍ فقد ظعنوا (٥)
أو تحفظون عهداً لا أضيعها إن الكرام بحفظ العهد تمتحن (٦)

ومنها :

إن كان عادكم عيدٌ فرب فتى بالشوق قد عادته من ذكركم حزن
وأفردته الليالي من أحبته فبات ينسدها، مما جنى الزمن
«بم التعلل؟ لا أهل، ولا وطن ولانديم، ولا كاس، ولا سكن!» (٧)

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان ، وقد أثبتناها عن المعجب .

(٢) الشجن : الحزن . الوسن : النوم .

(٣) ورقاء : حمامة . شفاها الحزن : أضعفها وأنحلها .

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة أو الأجمة بجوار الماء . يهفو : يتحرك ويتمايل .

(٥) ظعنوا : رحلوا .

(٦) تمتحن : تختبر .

(٧) اقتبس الشاعر البيت من مطلع قصيدة للمتنبي . السكن : ما يمكن إليه الإندان من أهل

وصال وغير ذلك ، ويطلق في الغالب على الزوجة أو الحبيبة .

٢ - الشكوى والاستعطاف

لوعة في السجن :

نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو في السجن ،
وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن بُرد :

ما عَلَى ظَنِّي بِأَسْ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو^(١)
ربما أَشْرَفَ بِالْمَرِّ عَلَى الْأَمَالِ يَأْسُ
ولقد يُنْجِيكَ إِغْفَا لٌ وَيُرْدِيكَ احْتِرَاسُ
والمحاذيرُ سِهَامٌ والمقَاديرُ قِيَاسُ^(٢)
ولَكُمْ أَجْدَى قُعُودٌ وَلَكُمْ أَكْدَى التَّمَاسُ^(٣)
وكذا الدَّهْرُ ، إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ ذَلَّ نَاسٌ
وبنو الْأَيَّامِ أَخْيَا فُ : سَرَاةٌ وَخِسَاسُ^(٤)
نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ مَتَعَةٌ ذَاكَ اللَّبَاسُ
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَالكَ فِي فَهْمٍ إِيَّاسُ^(٥)

(١) ياسو : يأسو يداوى .

(٢) قياس : هنا جمع قوس .

(٣) أجدى : أغنى وأفاد ، أكدى : أخفق .

(٤) أخياف : مختلفون ، قال بعضهم : « الناس أخياف وشي في الشيم » .

(٥) هو إياس بن معاوية بن قضاة المراق في عصر بني أمية وكان يضرب به المثل في الذكاء والفهم ،
وعناه أبو تمام في قصيدته التي يمدح بها أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

مِنْ سَنَا رَأَيْكَ لِي فِي غَسَقِ الْخَطْبِ اقْتِبَاسٌ ^(١)
 وَوَدَادِي لَكَ نَصٌّ لَمْ يَخَالَفُهُ الْقِيَّاسُ
 أَنَا حَيْرَانٌ وَلِلْأَمِّ رُوضُوحٌ وَالتَّبَاسُ
 مَا تَرَى فِي مَعْشِرٍ حَا لُوا عَنْ الْعَهْدِ وَخَاسُوا ^(٢)
 وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا يُتَّقَى مِنْهُ الْمِسَاسُ ^(٣)
 أَذْوَبٌ هَامَتْ بِلِحْمِي فَانْتَهَاسٌ وَانْتِهَاسٌ ^(٤)
 كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَالِي وَلِلذَنْبِ اعْتِسَاسٌ ^(٥)
 إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلَمَّا مِنْ الصَّخْرَانِ بَجَاسٌ ^(٦)
 وَلِئِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُوسًا فَلِلغَيْثِ احْتِبَاسٌ
 يَلْبُدُ الْوَرْدُ السَّبَبَتِي وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسٌ ^(٧)
 فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى مَقَلَةَ الْمَجْدِ النَّعَاسُ
 وَيُفَتِّ الْمِسْكُ فِي التُّرْبِ بِفِيْوَطَا وَيُدَاسُ ^(٨)
 لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًّا إِنْ عَهْدِي لَكَ آسُ

(١) سنا : ضوء . غسق : ظلمة .

(٢) خاسوا : خانوا .

(٣) السامري : كان من قوم موسى ، ا فعبد العجل وتحاماه الناس ، وقصته مشهورة في القرآن

الكريم .

(٤) الانتهاس : العوض .

(٥) الاعتساس : طلب الصيد بالليل .

(٦) انبجس : نبع .

(٧) يلبد : يلصق بالأرض . الورد : الأسد . السبتي : الجري .

(٨) لا يكن عهدك سريع الذبول كالورد فإن عهدى كالآس لا يذبل .

وَأَدِرُّ ذِكْرِي كَأَسَاً مَا امْتَطَتُ كَفِّكَ كَأَسُ
 وَاعْتَنِمُ صَفْوَةَ اللَّيَالِي إِذَا الْعَيْشُ اخْتَلَّاسُ
 وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْرُ فَقَدْ طَالَ الشَّمْسُ (١)

ألم وشكوى :

نظم ابن زيدون في فاتحة سجنه هذه القصيدة يعاتب فيها أبا الخزم بن جهور ويدفع عن نفسه الهممة متضرعاً في إباء، مستعظماً في حرقة . وإنك لتشعر خلال هذه الأبيات بألم الشاعر الذي أعيبته المحنة ، ولكنه بقي متجلداً ، مدركاً لمزاياه ، غير مسترسل في مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه التي أمضها السجن وآذاها ، قال :

ألم يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْعِمَارُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مَنْصَلَتَ النَّصْلِ (٢)
 وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجَمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا لَتَنْدَبَ فِي الْآفَاقِ مَضَاعَ مَنْ نُبِلِي
 وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي الدُّلِّ لِمَارَاتِ ذُلِّي
 وَلَا فَرَّقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وَغَاظَهَا بِمَجْمَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي
 لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا لَقَدْ قَرُطَسْتَ بِالنَّبْلِ فِي مَوْضِعِ النَّبْلِ (٣)
 تَحَلَّتْ بِآدَابِي ، وَإِنْ مَارَبِي لَسَانِحَةٌ فِي عَرْضِ أُمْنِيَّةِ عُطْلِي
 أَحْصُ لِفَهْمِي بِالْقَلْبِ وَكَأَنَّمَا يَبِيتُ لِيذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى دَحْلِ (٤)

(١) الشمس : التمرد والنفور . سمح الرجل وأصح : اتصف بالجوود والسهولة واليسر .

(٢) منصلت : ماض قاطع .

(٣) النزع : الزر بالسهام والنبال . قرطست : أصابت .

(٤) الدحل : الثأر .

وَأُخْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ مَفْصَلَةَ السَّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ
 وَلَوْ أَنِّي أَسْطَبِعُ كَمَا أَرْضَى الْعِدَا شَرَيْتُ بِبَعْضِ الْحَلْمِ حِطًّا مِنَ الْجَهْلِ
 أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَاءِ أَلَمْ تُتْرِكِ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي (١)
 أَقْلِي بُكَاءً لَسْتَ أَوْلَ حُرَّةٍ طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثُّكُلِ (٢)
 وَفِي أُمَّ مُوسَى عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَأَسْلِي (٣)
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكْمِ عَدْلٍ (٤)
 وَإِنْ رَجَائِي فِي الْهَمَامِ ابْنِ جَهْوَرٍ لَمْ تُسْتَحْكَمْ الْأَسْبَابُ مَسْتَحْصِدُ الْجَبَلِ (٥)
 كَرِيمٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ وَقَلَّمَا يُرَى الْفَرْعُ إِلَّا الْمُسْتَمِدًّا مِنَ الْأَصْلِ
 نَهَوْضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتُّقَى سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمَلِيمُ فَإِنَّهُ وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ يُوَضَعُ بِالشَّكْلِ
 يَرِفُّ عَلَى التَّامِيلِ لِأَلَاءِ بَشْرِهِ كَمَا رَفَّ لِأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (٦)
 مُحَاسِنٌ مَا لِلْحُسْنِ لِلْبَدْرِ عِلَّةٌ سِوَى أَنَّهُ بَاتَتْ تَمَلُّ فَيَسْتَمَلِي (٧)

(١) الخطاب هنا لأمه ، وقد زارته في السجن فبكت .

(٢) الكشج : الحاصرة ، وطوى كشحاً عن فلان أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك » ، فألقته فالتقطته امرأة فرعون ، والشاعر يطلب أن تعتبر هذه القصة وتضبر .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتأدلاً ويرق .

(٧) تمل مضارع أمل ، يقال أملاه القول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، والمعنى : هذه محاسن للممدوح

الشيء بالبدر لا عيب فيها سوى أنها تمل باتت على الشاعر وهو يكتب ويستكتبها فتمليه .

وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ اِكْتِفَاءً بِسُرُوحِهَا غِنَى الْمَقْلَةِ الْكِحْلَاءِ عَنِ زِينَةِ الْكُحْلِ (١)
 أبا الحزم إني في عتابك مائلٌ على جانبٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا سَهْلٌ
 حمائمٌ شَكْوَى صَبَّحْتَكَ هَوَادِلًا تناديكَ من أفنانِ آدابي الْهَدْلِ (٢)
 جَوَادُ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى تَمَطَّرُ فَاسْتَوَى عَلَى أَمْدِ الْخَصْلِ (٣)
 ثَوَى صَافِنًا فِي مَرَبِطِ الْهَوَنِ يَشْتَكِي بِتَضُّعِهَا مَا نَالَهُ مِنْ أَدَى الشَّكْلِ (٤)
 أفي العَدْلِ أَنْ وَاْفَتَكَ تَتْرَى رَسَائِلِي فَلَمْ تَتْرُكَنْ وَضْعَالَهَا فِي يَدَيِ عَدْلٍ
 أُعِدُّكَ لِلْجَلِّيِّ وَأَمَلٌ أَنْ أُرَى بِنُعْمَاكَ مُوسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ
 وما ذاكَ وَعَدُّ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى كَأَنِّي بِهِ قَدْ شَمْتُ بَارِقَةَ الْمُحْلِ
 أَتَنْ زَعَمَ الْوَأَشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تُعَذِّرُنِي نَصْرِي وَتُعَذِّرُنِي خَذْلِي (٥)
 وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِغِ الْجَنِي وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلِّ
 ولو أَنِّي وَاقَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً لَمَا كَانَ بَدْعًا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تَمْلِي (٦)
 فلمَ اسْتَشْرُ حَرْبَ الْفِجَارِ وَلَمْ أُطْع مُسَيْلِمَةَ إِذْ قَالَ : إِنْ مِنْ الرُّسْلِ (٧)
 ومثليَ قَدْ تَهْفُو بِهِ نَشْوَةُ الصَّبَا ومثلكَ مَنْ يَعْفُو وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلِ

(١) السرو : الشرف .

(٢) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام . والهدل : جمع أهدل وهو صفة الأفنان من هدلت أي تدلت .

(٣) استن الجياد : مضت مسرعة في السباق ، تمطر : أنفتت . استوى على أمد الخصل : كناية من إحراز قصب السبق .

(٤) الصافن من الجياد : الذي قام على ثلاثة قوائم ولوى الرابعة . الشكل : شد قوائم الدابة بالشكال .

(٥) تعذر الأولى : تفقد العذر ، وتعذر الثانية : تجد العذر .

(٦) واقعت : دانيت . تمل : تمهلي ولا تتعجل العقوبة .

(٧) كانت هذه الحرب في الجاهلية بين قريش وقيس وانتهكت فيها الثانية حرمة الأشهر الحرم .

وإني لنتهاني نُهأى عن التى أشاد بها الواشى ويعقلنى عقلى (١)
 أأنقضُ فىك المدح من بعد قوّة فلا أقتدى إلا بناقضة الغزل (٢)
 ذممتُ إذا عهدَ الحىاة ولا يزلُ ممرّاً على الأيام طعمهُما المحلى (٣)
 وما كنتُ بالمهدى إلى السؤدد الخنا ولا بالمسىء القول فى الحسن الفِعل
 ومالى لا أُننى بآلاءِ مُنعم إذا الروضُ أثنى بالنسيم على الطلّ
 هى النعل زلت بي فهل أنت مُكذِب لقليل الأعداى إنها زلّة الحسل (٤)
 ألا إن ظنى بين فعليك واقفٌ وقوفَ الهوى بين القطيعة والوصل
 فإن تُمن لى منك الأمانى فشيمةٌ لذلك الفِعال القصد والخلق الرسل
 وإلاجنيتُ الأنس من وحشة النوى وهول السرى بين المطية والرحل (٥)
 سيعنى بما ضيعت منى حافظٌ ويُلنى لما أرخصت من خطرى مغلى
 وأين جوابُ منك ترضى به العلاء إذا سألتنى عنك ألسنة الحفل

لا يهنا الشامت :

وقال أيضاً هذه الأبيات ، من قصيدة كتبها إلى أبى الحزم بن جمهور فى العجن ، يعبر فيها عن ألمه وقلقه وعذابه ، ويشيد بشعره ويحاول أن يتأسى بصروف الأيام . قال بعد مقدمة غزلية تحدث فيها عن أرقه وسهاده لهجر حبيته :

- (١) يعقلنى : يجسنى ويعنى .
- (٢) يشير إلى الآية الكريمة : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً » .
- (٣) ممرّاً من أمر الطعام صيره مرّاً .
- (٤) الحسل : الحسة والدناوة ، وبكسر الحاء : ولد الضب .
- (٥) الرسل : السهل والطلق .
- (٦) يشير إلى أنه سيرحل إن أطلقه ولم ينله أمنيته .

مِنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدْهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
 لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شِبَابِي كَبْرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرَا
 قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدَ الصَّبَا كَثَبٌ وَلِلشَّبِيَّةِ غُضُنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرٍ^٢
 هَا إِنَّهَا لَوَعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبي طَائِرُ الشَّرَرِ
 لَا يَهْنَأُ الشَّامَتَ الْمِرْتَاحَ خَاطِرُهُ أَنِي مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ
 هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ أَمْ الْكُسُوفُ لغيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ^٣
 إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ قَدْ يُودَعُ الْجَفْنُ حَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 وَإِنْ يُثَبِّطُ. أَبَا الْحَزْمِ الرُّضَا قَدَّرَ عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبَ عَلَى الْقَدْرِ
 مَا لِلذَّنُوبِ ، الَّتِي جَانِي كِبَائِرِهَا غَيْرِي ، يُحْمَلْنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي؟^٤
 مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ عَلَى ثِقَةٍ وَلَمْ أَزَلْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ
 ذَوَالشَّيْمَةِ الرُّسُلِ إِنْ هِيَجَتْ حَفِيظَتُهُ وَالْجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ الْيَسْرِ^٥
 وَزَيْرٌ سَلِمَ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ شَوْمَ الْحُرُوبِ وَرَأَى مُحْصِدَ الْمِرْرِ^٦
 أَغْنَتْ قَرِيحَتَهُ مَعْنَى تَجَارِبِهِ وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْعَجَلَى عَنِ الْفِكْرِ

(١) العارض : صفة الحد .

(٢) كتب : قريب . مهتصر : مائل .

(٣) نجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ، وهذا البيت تعليل للبيت السابق أى لا تفرح أبها الشامت فالرياح لا تمصف إلا بما له ساق من النبات والكسوف لا يكون لغير الشمس والقمر .

(٤) الوزر : الملجأ ويقصد أبا الحزم .

(٥) الشيمة الرسل : السمحة . المستعتب : مصدر يمى بمعنى الاستعتاب وهو الاسترضاء . اليسر : السهل .

(٦) المرر : جمع مرة وهى قوة الخلق وشده ، ومحصد : قوى متين .

قد كنتُ أَحْسَبُنِي والنجمَ في قَرْنٍ
 أحيانَ رفًّا على الآفاقِ من أدبي
 وسيلةٌ سببٌ إلا تكنُ نسباً
 وبائنٌ من ثناءٍ حُسْنُهُ مَثَلٌ
 يُستودَعُ الصُّحُفَ لا تخفى نوافحهُ
 لي في اعتمادِكَ بالتأميلِ سابقةٌ
 ففيمَ غَضَّتْ هسومي من علاهِمِمي
 هل من سبيلٍ، فماء العتبِ لي أَسْنُ
 نذرتُ شكرَكَ لا أنسى الوفاءَ به
 لا تَلُهُ عني فلمَ أَسْأَلُكَ مُعْتَسِفاً
 هَبْنِي جَهَلْتُ فكان الصنعُ سيئَةً
 إن السيادةَ بالإغضاءِ لابسَةٌ
 ففيمَ أَصْبَحْتُ منحطاً إلى العَفْرِ^١
 غرُسٌ له مِنْ جَنَاهُ يانِعُ الثمرِ^٢
 فهو الودادِ صفاً من غير ما كَدَرَ
 وَشَىُّ المحاسنِ منه مُعَلِّمُ الطُّرَرِ^٣
 إلا خَفَاءَ نسيمِ المسكِ في الصُّرَرِ^٤
 وهجرَةٌ في الهوى أَوْلَى من الهجرِ
 وَحَاصٌ بي مَطْلَبِي عن وَجْهَةِ الظَّفَرِ^٥
 إلى العذوبةِ من عُتْبَاكَ والخصْرِ^٦
 إنَّ أسْفَرَتْ لي عنها أوجهُ البُشْرِ^٧
 رَدَّ الصِّبَا بعد إيفاءٍ على الكِبَرِ^٨
 لا عذرَ منها سوى أنني من البشرِ
 بهاءها ، وبهاء الحُسْنِ في الخَفْرِ

(١) العفر : التراب .

(٢) رف النبات : اهتز .

(٣) الطرر : جوانب الثوب ، ومعلم الطرر : المميز بعلامات دالة .

(٤) التوافج : جمع نافجة وهي وعاء المسك . الصرر : جمع صرة وهي الكيس .

(٥) حاص : مال .

(٦) العتي : الرضا . الخصر : البرودة . يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذي يشبه الماء العذب الخصر فإن ماء العتب أصبح أسنا كدرا .

(٧) الضمير في « عنها » عائد إلى العتي ، والبشر : جمع بشرى .

(٨) أي لم يعتسف في السؤال ولم يطلب مستحيلاً ، فلم يسأله أن يرد إليه الصبا وقد أرقى على

فأشفعَ أكنُ مثلَ ممطورٍ ببِلْدَتِهِ جذلانَ بالوطنِ المألوفِ والوَطَرِ
والْبَسْ من النعمةِ الخضراءِ أَيْكَتَهَا ظلًّا حراماً على الآفاتِ والغيرِ
نعيمَ جنةٍ دُنْيَا إنْ هِيَ انصَرَمَتْ نَعِمْتَ بالخُلْدِ في الجناتِ والنَّهْرِ

* * *

أَيْنَ أَيَامِنَا ؟

قال ابن زيدون هذه الأبيات من قصيدة كتبها إلى صديقه أبي القاسم بن
رفق يعاتبه ويذكر فيها أيامه الماضية معه ويصف خلالها بعض مشاهد الطبيعة :

عُدْرِي ، إنْ عَدَلْتِ فِي خَلْعِ عُدْرِي ،
غُصْنٌ أَثْمَرْتُ ذُرَاهُ بِبَدْرِ^(١)
هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَطْرًا وتَجَافَى عَنِ الوِشَاحِ بِشَطْرِ
رَشَاءٌ أَقْصَدَ الجَوَانِحَ قَصْدًا عَن جِفُونٍ كُجِلْنَ عَمْدًا بِسِحْرِ^(٢)
كَسِيَّ الحَسَنِ فَهُوَ يَفْتَنُ فِيهِ سَاحِبًا ذَيْلَ بُرْدِهِ المُسْبَكِ^(٣)
تَحْتَ ظِلِّ مِنَ العَرَاةِ فِينَا نَ وَرَوِّقٍ مِنَ الشَّبِيبةِ نَضْرُ^(٤)
أَبْرَزَ الجَيْدَ فِي غَلَائِلَ بِيضٍ وَجَلَّ الخَدَّ فِي مَجَاسِدِ حُمُرٍ
وَتَشَنَّتْ بِعِطْفِهِ إِذْ تَهَادَى خَطْرَةٌ تَمْرُجُ الدَّلَالِ بِكِبْرِ

(١) عذر : أي معاذير . عذر : جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أي ترك الحياء .

(٢) أقصد : طعن .

(٣) المسبكر : المتربل .

(٤) روق الشباب : أوله .

زارني بعدَ هجعةٍ والثريا راحةٌ تقديرُ الظلامِ بِشِبْرِ (١)
والدُّجَا من نجومِهِ في عقودٍ يتلألأَنَّ من سِماكٍ ونَسْرٍ
تحسَبُ الأفقَ بينها لأزورداً نُثرتُ فوقه دنائيرُ تَبْرٍ
فرشفتُ الرضابَ أعذبَ رَشْفٍ وهَصرتُ القضيْبَ ألطفَ هَصْرٍ
ونعِمنا بلفِّ جسمٍ بجسمٍ للتصافي ، وقرع ثَغْرٍ بثغرٍ
يا لها ليلةٌ تجلَّى دُجَاها من سَنَا وَجَنَّتِيهِ عن ضوءِ فجرٍ
قَصْرُ الوصلِ عُمَرُها ، وبِوَدَى أَن يطولَ القصيرُ منها بِعُمَرِي

* * *

مَنْ عَدِيرِي من ريبِ دهرٍ خوونٍ كلَّ يومٍ أراعُ منه بغدِرٍ
كلما قلتُ : حاكٍ فيه ملامِي نَهَسْتَنِي منه عقاربُ تَسْرِي (٢)
وترتني خطوبُهُ في صَفِيٍّ فاضلٍ نابِهٍ ، من الدهرِ ، وتر (٣)
بانَ عني ، وكانَ روضةَ عيني ، فغدا اليومَ وهو روضةٌ فكري
فِكهُ يُبهِجُ الخليلَ بوجهِ تَرِدُ العينُ منه يَنبوعُ بِشْرِ
لودعيُّ إِن يَبْلُهُ الخُبْرُ يوماً أَخجلَ الوردَ عن خلائقِ زُهرٍ
وإذا غازلتهُ مقلَّةٌ طرفٍ كادَ من رِقَةٍ يذوبُ فيَجْرِي

* * *

(١) تقدر : تقيس .
(٢) حاك : رسخ أو أثر فيه . نهستني : عضتني .
(٣) وترتني : أصابتني بظلم أو مكروه . وتر : فرد قد .

يا أبا القاسم الذي كان رِدْئِي وظهيري على الزمان وذُخْرِي (١)
يا أَحَقَّ الْوَرَى بِمَحْوِضِ إِخْلَا صِي وَأَوْلَاهُمْ بِغَايَةِ شِكْرِي
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي مِنْ تَنَاءِ يَكْ بِجَهْمٍ مِنَ الْحَوَادِثِ نُكْرِي

* * *

لَيْتَ شِعْرِي! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سَسْ بِمَجْدِي عَلَى الْفَتَى «لَيْتَ شِعْرِي»
هَلْ لِحَالِي زَمَانُنَا مِنْ رَجُوعٍ؟ أَمْ لِمَاضِي زَمَانُنَا مِنْ مَكْرٍ؟

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لِيَالٍ كَرِيَاضٍ لَبِسْنَ أَفْوَاغَ زَهْرٍ
وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيهِ وَسْنٌ أَوْ هَفَّابِهِ فَرَطٌ. سُكْرٍ
حِينَ نَعْدُو إِلَى جَدَاوِلِ زُرْقٍ يَتَغَلَّغْنَ فِي حَدَائِقِ خُضْرِ
فِي هَضَابٍ مَجْلُودَةِ الْحَسَنِ حُمْرٍ وَبَوَادٍ مَصْقُولَةِ النَّبْتِ عُفْرِ
نَتَعَاطَى الشَّمُولَ مُذْهَبَةَ السَّرِّ بِالِ وَالْجَوْ فِي مَطَارِفِ غُبْرِ (٢)
فِي فُتُوِّ تَوَشَّحُوا بِالْمَعَالِي وَتَرَدَّوْا بِكُلِّ مَجْدٍ وَفَخْرِ (٣)
وُضِّحُ تَنْجَلِي الْغِيَاهِبُ مِنْهُمْ عَنْ وُجُوهِهِمْ مِثْلَ الْمَصَابِيحِ غُرِّ
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُ ظَرْفًا زَانَ مَرَاتِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرِ (٤)

(١) الردء : الناصر ، العون .

(٢) مطارف : جميع مطرف - بضم الميم وكسرهما - رداء مربع من خز ذو أعلام

(١) فتو : جمع فتى .

(٢) الخرق : من الفتيان الطريف في ساحة ونجدة . مراته : منظره الجميل .

وسجايا كأنهن كؤوس أو رياض قد جادها صوب قطر
يتلقى القبول مني قبول كلما راح نفتحها ارتاح صدرى
فهو يسرى محملاً من سجايا ك نسيماً يزهى بأفوح عطر

* * *

٣ - المدح

ملك أطاع الله :

قال ابن زيدون هذه الأبيات يمدح أبا الحزم بن جهور ويعرض بالوشاة بعد
مطلع غزلى :

مألى وللأيام ؟ لج مع الصبا عدوانها فكسا العذار مشياً
مَحَقَّتْ هلالَ السنِّ قبلَ تمامه وذوى بها عُصْنُ الشَّبَابِ رطيباً
لَأَلَمَّ بى ما لَوَّ أَلَمٌ بِشَاهِقٍ لَانْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيباً
فلئن تَسَمَّنِي الحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى لِلجَفْنِ فِي العَضْبِ الطَّرِيرِ نُدُوباً
ولئن عَجِبْتُ لَأَنَّ أَضَامَ وَجْهَهُ نِعَمَ النَصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيباً
مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لَجَارِهِ زَحْفاً وَلَا تَمْشِي الضَّرَاءُ دَبِيباً
مَلِكٌ أَطَاعَ اللهَ مِنْهُ مَوْقُ ما زال أواباً إليه مُنِيباً

(١) تسمى : تجشني مكروهاً . الجفن : الغمد . العضب الطرير : السيف القاطع . الندوب :
جمع نذب وهو الجرح وهنا أثر الصدا الذي يملو السيف لطول مكثه في الغمد .
(٢) تعدى : تسرع في العدو . يمشى الضراء : يمشى مستخفياً .

يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيًا وَمُوَالِيًا وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبًا وَمُثْبِتًا
مُتَمَرِّسٌ بِالذَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ إِنَّ قَامَ فِي نَادَى الْخُطُوبِ خُطْبِيًّا
بَسَامٌ تُغْرِ الْبِشْرَانِ عَقْدُ الْحُبَا فَرَأَيْتَ وَضَاحًا هُنَاكَ مَهْيَبًا (١)
مَلَأَ النَّوَاطِرَ صَامِتًا وَلِرَبْمَا مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَمَجِيًّا
عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَاةِ نَسَقَ اللَّالِيَّ مُنْجِبًا وَنَجِيًّا
يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهَلْمُ مُسْتَعْنِيًّا بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِبِيًّا
وَإِذَا دَعَوْتَ وَكَلِدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ لِبَاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيًّا
هِمٌّ تَنَافُسَهَا النَّجُومُ وَقَدْ تَلَا فِي سُودَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيًّا
وَمَحَاسِنُ تَنْدَى رِقَائِقُ ذِكْرَهَا فَتَكَادُ تُوهَمُكَ الْمَدِيحُ نَسِيًّا
كَالْآسِ أَخْضَرَ نَضْرَةَ وَالْوَرْدِ أَحْمَرَ حَرَبَهَجَةً ، وَالْمِسْكَ أَذْفَرَ طِيًّا (٢)
وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ فَاغْتَنَّنَ لَمْ يَكُنِ الْمَرَادُ غَرِيبًا
غَالِيًّا بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مَوَاقِعٍ سَرَفًا وَلَا مُتَوَقَّعٍ تَكْذِيبًا (٣)
كَانَ الْوَشَاءُ وَقَدْ مُنِّبٌ بِإِفْكَهِمْ ، أَسْبَاطُ يَعْقُوبٍ وَكَنْتُ الذِّيبَا (٤)
وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضُّ الْجَنِيَّ هَزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلَا تَثْرِيًّا

(١) الحبا : جمع حبة ، وعقد الحبا : جلس ضاماً رجله إلى بطنه .

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

(٣) مواقع : مدان . المتوقع : المنتظر ، يقول : مهما بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانياً
إفراطاً ولا متخوفاً تكديباً .

(٤) يريد أنه برىء عما ابتل به من كذبهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

أنا سيفك الصدى الذي مهماتشاً نُعِدِ الصِّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيْبَا (١)
 كم ضاق بي من مذهب في مطلبٍ فَشْنَيْتَهُ فُسْحَ الْمَجَالِ رَحِيْبَا
 وزها جنابُ الشكر حين مطرته بسحائبِ النُّعْمَى فَرُدَّ خَصِيْبَا

* * *

فرحة الشاعر :

كتب الشاعر هذه القصيدة يمدح بها صديقه أبا الوليد بن جهور بعد أن اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه ، وفيها تتجلى فرحة الشاعر بمليكه واستبشاره بولايته ، قال بعد مطلع غزلي يحن به إلى ولادة : *

للجهوريّ أبي الوليد خلّائقُ كالرّوضِ أضْحَكُهُ الغمامُ الباكي
 ملكٌ يسوسُ الدهرَ منه مهذبٌ تدبيرُهُ للملكِ خيرٌ ملاك (٢)
 جارَى أباه بعدما فاتَ المَدَى فتلاهُ بين الفوتِ والإدراكِ
 شمسُ النهارِ وبدرةٌ ونجومهُ أبناؤه من فرقدٍ وسماك (٣)
 يستوضحُ السارونَ زهُرَ كواكبٍ منهم تُنيرُ غياهبَ الأحلاكِ
 بُشراكِ يا دنيا وبشرانا معاً هذا الوزيرُ أبو الوليدِ فتاكِ
 تُلقَى السيادةَ ثمَّ إن أضللتها ومتى فقدت السروَ فهو هناك (٤)
 وإذا سمعتِ بواحدٍ جُمعتُ له فرقُ المحاسنِ في الأنامِ فدّاكِ

(١) التذريب : التحديد .

(٢) ملاك الأمر : قوامه .

(٣) الفرقد والسماك : نجان نيران .

(٤) تلقى : تجدى ، والخطاب للدنيا . ثم : هناك . السرو : الشرف .

• انظر منتخبات الغزل ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

صمصامٌ بادرَةٌ وطوودٌ سَكِينَةٌ وجوادٌ غاياتٌ وجذُلٌ حِكَاكٌ^(١)
 طَلَقٌ يُفَنِّدُ فِي السَّمَاحِ وَجَاهِلٌ مَنْ يَسْتَشْفُ النَّارَ بِالْمِحْرَاكِ^(٢)
 صَنَعَ الضَّمِيرِ إِذَا أَحَالَ بِمُهْرَقٍ يَمْنَاهُ فِي مَهَلٍ وَفِي إِيشَاكِ^(٣)
 نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِي خِلَالِ سَطُورِهِ نَظْمَ اللَّالِيِ التُّومِ فِي الْأَسْلَاكِ^(٤)
 نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مَنَافِسًا أَحْرَزَتْ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ^(٥)
 مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامِرَةٌ النَّدَى مُتَحَلِّيًّا إِلَّا بِبَعْضِ حُلَاكِ
 كَلًّا وَلَا الْمَسْكُ النَّوْمُ أَرِيحُهُ مَتَعَطَّرًا إِلَّا بِوَسْمِ ثَنَاكِ
 اللَّهُو ذِكْرُكَ لَا غِنَاءُ مُرْجِعٍ يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ^(٦)
 طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَائِكَ هِزَّةٌ تَهْفُو لَهَا أَسْفَاءُ قُلُوبٍ عِدَاكِ
 يَأْيُهَا الْقَمْرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ وَسَنَاهُ تَعَشَوُ السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ^(٧)
 فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصِحْحَةِ الْإِمْلَاكِ^(٨)
 مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْ حَدَفِي النَّهْيِ وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ بِالْإِشْرَاكِ

(١) صمصامٌ بادرَةٌ : سيفٌ حدة . الجذل : عود الشجرة ، وجذل الحكاك : جذل ينصب

لتحتك به الإبل الجربي .

(٢) يقول إنه باش الوجه سمح والكرم طبيعة فيه وليس يزيدُه نفييد الجاهلين إلا عمادياً في الكرم

كالنار يزيدُها المحرك اشتعالاً .

(٣) صنع الضمير : صناع حاذق . المهرق : الصحيفة . إيشاك : إسراع .

(٤) توم اللالِي : الكبيرة منها .

(٥) النوم : الساطع . الثنا : الثناء .

(٦) مرجع : مردد . الإطلاق والإمساك : الانطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٧) النساء بالمد : الرفعة والشرف ، والسنا بالقصر : الضوء . تعشو : تنقص .

(٨) الإملاك : الزواج .

قَلَّدَنِي الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمِ زِينَةٍ وَعِرَاكٍ
وَإِذَا تَحَدَّثَتِ الْحَوَادِثُ بِالرَّنَا شَزْرًا إِلَى فِئْتِكُمْ لَهَا : إِيَّاكَ
وَالدَّجْنَ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالجَفْنَ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفِتَّاكِ
دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتَدِمْتَ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

* * *

ملتمس الوزارة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة في مدح أبي الوليد بن جهور (لا في مدح
أبي الحزم بن جهور كما جاء في الديوان) ، وفيها نجد الشاعر يعرض بمطلب لعله
منصب الوزارة بعد أن أبدى إبتهاجه في القصيدة السابقة باعْتلاء أبي الوليد عرش
قرطبة ، وهو يفتتحها بمطلع غزلي تقايدى ثم يسترسل في مدح مليكه وتعداد مناقبه
في جو من النشوة يدل على إقبال الدنيا عليه . قال بعد المقدمة الغزلية ومطلعها :

أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي حَيْثُ أَحْيَا وَهِيَ الْأَسْدُ مَهَاةٌ حَمَّتْهَا فِي مَرَاتِعِهَا أُسْدُ

* * *

هو الدهرُ مهما أحسن الفعل مرةً فمن خطأً ، لكن إساءته عمْدُ
حذارك أن تغتر منه بجانبٍ ففي كل وادٍ من نوائبه سعد^٢
ولولا السراة الصيْدُ من آل جهور لأعوز من يُعدي عليه متى يعدو^٣

(١) الرنا : النظر .

(٢) يقال : « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » هو مثل يضرب في الشر ويريدون به أن في كل جهة كفاها من الشر والأذى .

(٣) أعدي فلاناً على فلان : نصره وأعاناه وقواه .

ملوك لبسنا الدهرَ في جنباتهم رقيق الحواشي مثل ما فوف البرد^(١)
بحيث مقيل الأمن ضاف ظلالة وفي منهل العيش العذوبة والبرد^(٢)
هم النفر البيض الذين وجوههم تروق فتستشفى بها العين الرمد
كرام يمد الراغبون أكفهم إلى أبحر منهم لها باللها مد^(٣)
فلا ينغ منهم هالك، فهو خالد بآثاره إن الثناء هو الخلد
أليس أبو الحزم الذي غب سعيه تبصر غاويننا فبان له الرشد
أغر تمهدنا به الخفض بعدما أقض علينا مضع ونا مهذ
فشمّر حتى انجاب عارض فتنة تالق منها البرق واصطخب الرعد^(٤)
هو الأثر المحمود إن عاد ذكره تطلعت العلياء واستشرف المجد
تولى فلولا أن تلاه محمد لأوطأخذ الحر أخصه العبد^(٥)
ملك يسوس الملك منه مقلد روى عن أبيه فيه ماسنه الجد
سجيته الحسنى وشيمته الرضا وسيرته المثلى ومذهبه القصد
هُمام إذا زان الندى بحبوة ترجح في أثنائها الحساب العد^(٦)
زعيم لأبناء السيادة بارع عليهم به تُثنى الخناصر إن عدوا

(١) فوف : رقق . البرد : الثوب .

(٢) مقيل : مكان القليلة ، وهو هنا بمعنى منزل . ضاف : سايق .

(٣) اللها جمع لمة : العطايا .

(٤) يشير إلى قيام أبي الحزم بشئون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر نجي أمية .

(٥) يقول لولا أن أبا الوليد محمد بن جمهور قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة وسادت دولة العبيد

عل دولة الأحرار فأذنوهم وداسوا خدودهم بأرجلهم .

(٦) العد : الكثير .

بعيد منال الحال داني جنى الندى
 مِحْرٌ لمن عاداه إذ أولياؤه
 إذا اعترف الجاني عفا عفوقادرٍ
 له عَزْمَةٌ مطويةٌ في سَكِينَةٍ
 ذراعٌ ، لما يأتى به الدهرُ ، واسعٌ
 هو الملك المشفوعُ بالنُّسكِ مُلْكُهُ
 إلى الله أَوَّابٌ والله خائفٌ
 فديتكَ إني قائلٌ فمعرضٌ
 منى كالشجادون اللهاة تعرّضت
 أمثلى غُفْلٌ خاملٌ الذُّكْرُ ضائعٌ
 أنا السيفُ لا ينبوع الهزَّ غرْبُهُ
 بدأت بنعمى غَضَّةٍ إن توألتها
 لعمرك ما للمال أسعى فإنما
 ولكن لحال إن لبستُ جمالها
 أتتكَ القوافى شهاداتٍ بما صفا

إذا ذُكِرَتْ أَخلاقُهُ خَجِلَ الْوَرْدُ
 يَلْدُ لَهُمْ كالماءِ شَيْبٌ به الشَّهْدُ
 عَلَا قَدْرُهُ عن أن يَلِجَ به حِقْدُ
 كما لَانَ مَتْنُ السيفِ واخشوشنَ الحَدُّ
 وباعٌ ، إلى ما يُحْرِزُ الفخرَ ممتدُّ
 فله ما يَخْفَى والله ما يَبْدُو
 وبالله معتدُّ وفي الله مُشْتَدُّ
 بأوطارِ نَفْسٍ منك لم تَقْضِها بعدُ
 فلم يكُ للمصدورِ من نَفْسِها بُدُّ
 ضياعُ الحسامِ العَضْبُ أَصداهُ العِمْدُ
 إذا ما نبا السيفُ الذي تَطْبَعُ الهِنْدُ
 فَحُسْنُ الألى في أن يوالها سَرْدُهُ
 يرى المالَ أسنى حَظَّهُ الطَّبَعُ الوَعْدُ
 كسوتكُ ثوبُ النُّصْحِ أعلامُه الحمدُ
 من الغيبِ فاقبلها فما غرَّكَ الشَّهْدُ

(١) مِر : من المرارة .

(٢) الشجا : ما يعترض في اللهاة أو الخلق .

(٣) العضب : القاطع .

(٤) الغرب : الحد . تطبع : تصنع .

(٥) الألى : النعمة . سرد : تتابع .

(٦) يشير في هذا البيت إلى الوزارة التي يرغب بها .

مدح وتهنئة :

هاهوذا ابن زيدون في إشبيلية يتفياً ظللال النعيم بقرب مليكها المعتضد ، بعد أن جعله وزيره وأغدق عليه نعمه وإحسانه . فليلهج لسان الشاعر بالشكر له ولينثر فوق تاجه درر شعره . وهذه القصيدة إحدى مدائحه الرائعة قالها يهنئه بحلول عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، وقد ذكر ابن بسام طرفاً منها في ذخيرته ونقد بعض أبياتها ، وذكر أيضاً ابن خاقان طائفة منها في قلائده . وإننا لنشعر ونحن نتلو أبياتها بذلك النسيج المماسك وتلك الديباجة الفخمة التي تم عن قوة أسره للكلام وحسن اطلاعه على شعر الفحول . وقد رأى ابن خاقان في مطلعها الغزلي حيناً لولادة وعهدا ونحن نرى كما أشرنا أنه مطلع تقليدي ليس فيه ما يربطه بولادة ، فلنستمع إلى الشاعر ولنتدبر معاً هذه الجزالة وهذه القوة :

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفَ مُعْرِفٌ لِنَاهِلِ لِيذَاتِ الْوَقْفِ بِالْجَزْعِ مَوْقِفٌ^١
فَنَقِضِي أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةٍ لِنَا كَلَفٌ مِنْهَا بِمَا نَتَكَلَّفُ^٢
ضِمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُرَارَ وَدُونَهَا رِقَاقُ الطُّبَا وَالسَّمْهَرِيُّ الْمُتَقَفُّ^٣
وَقَوْمٌ عِدَى يُبْدُونَ مِنْ صَفْحَاتِهِمْ وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحِقْدِ أَكَلَفُ^٤
غِيَارِي يَعْدُونَ الْغَرَامَ جَرِيرَةً بِهَا ، وَالهُوَى ظُلْمًا يَغِيظُ . وَيُوسِفُ
يُودُونَ لَوْ يَثْنِي الْوَعِيدُ زَمَاعِنَا وَهِيهَاتَ رِيحِ الشُّوقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصِفُ^٥
يَسِيرٌ لِي الْمَشْتَاقِ فِي جَانِبِ الْهُوَى نَوَى غُرْبَةٍ أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسِفُ

(١) العرف . الشدى والرائحة الطيبة . الوقف : السواد . الجزع : منعطف الوادى .

(٢) كلف : ولىع .

(٣) الطبا . جمع طبة وهى حد السيف . السمهرى : الريح . المتقف : المقوم .

(٤) يبدون من صفحاتهم : كناية عن العداوة . أزهر : مشرق .

(٥) الزماع : العزم على الزيارة .

هل الرُّوعُ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي ۝
 وَفِي السَّيْرَاءِ الرَّقْمُ وَسَطٌ قَبَابِهِمْ ۝
 تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبَلٌ مَنْعَمٌ ۝
 فَلِلْعَانِكِ الْمَرْتِجِ مَا حَازَ مَنزَرٌ ۝
 حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَ بِوَصْلِهِ ۝
 وَلَيْلَةٌ وَافِينَا الْكُثِيبَ لِمَوْعِدِ ۝
 تَهَادَى أَنَاةَ الْخَطُومِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا ۝
 فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَّاتِهَا ۝
 فَدَيْتُكَ أَنَّى زَرْتِ نَوْرِكَ فَاصِحٌ ۝
 هَبِيكَ اعْتَرَرَتْ الْحَى وَأَشِيكَ هَاجِعٌ ۝
 فَأَنَّى اعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطُوكِ مُدْمَجٌ ۝
 لِحَاجِ تَمَادِي الْحَبِّ فِي الْمُعْشِرِ الْعِدَا ۝

أَمِ الْهَوْلُ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ ۝
 بَعِيدٌ مَنَاطِ الْقُرْطِ . أَحْوَرٌ أَوْطَفَا ۝
 تَأَوَّدَ فِي أَعْلَاهُ لَدُنْ مَهْفَهْفَا ۝
 وَلِلْعُصْنِ الْمَهْتَزِّ مَا ضَمَّ مَطْرَفَا ۝
 إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَاهُ وَنُسَعَفُ ۝
 سُرَى الْأَيْمِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَرْحَفُ ۝
 كَمَا رِبْعٌ يَعْفُورُ الْفَلَا الْمُتَشَرَّفُ ۝
 سَوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينِ الْمُنْصَفُ ۝
 وَعِطْرُكَ نَمَامٌ وَحَلِيكَ مُرْجِفُ ۝
 وَفَرَعُكَ غَرِيبٌ وَلَيْلُكَ أَغْطَفُ ۝
 وَرَدْفُكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفُ ۝
 وَأَمُّ الْهُوَى الْأَفْقُ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفُ ۝

(١) السيرة : ثوب مخطط . الرقم : المرقوم أى المعلم . أوطف : طويل شعر أهداب العين .

(٢) عبل : أى ردف ضخم .

(٣) العانك : من الرمال ما نعتد وارتفع .

(٤) الأيم : الحية وذكر الأنبي .

(٥) يعنور : ظبي . التشراف : المستطلع من مكان عال .

(٦) إيأة الشمس : حسنها وضوءها . المنصف : الذى عليه النصف . وهو الحمار .

(٧) مرجف : من أرجف إذا تحرك وانضطرب .

(٨) اعتررت الحى : جتته وجزت به على غير علم . فرعك غريب : شعرك شديد السواد .

أغطف : حالك السواد .

(٩) مدمج : داخل بعضه فى بعض . مخطف : ضامر .

(١٠) أم الهوى : قصد الهوى . نشنف : نبغض .

وَأَنْتَلَقَى السَّخَطَ عَانِينَ بِالرَّضَى
 كَفَانَا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خِلْسَةً
 خَلِيلِيَّ مَهَلًا لَا تَلُومَا فَإِنِّي
 وَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمَحَبُّ لِحَاجَةٍ
 وَإِنِّي لَيْسَتْهُوَ بِنِي الْبَرْقُ صَبُوءَةً
 وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوَهُمٌ
 وَتَذَكُّرُنِي الْعِقْدَ الْمُرِنَّ جَمَانَهُ
 فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ
 وَلَا قَبْلَ عَبَادٍ حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسٌ
 هُوَ الْمَلِكُ الْجَعْدُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ
 هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلُهُ
 يَتِيهِ بِمِرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمَنْبَرٌ
 رَوِيَّتُهُ فِي الْحَادِثَاتِ الْإِدُّ لِحِظَّةٌ
 لِيغَيْرَانَ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطَفُ
 فَيَوْمِي طَرْفٌ أَوْ بِنَانٌ مُطْرَفٌ^١
 فَوَادِي أَلَيْفُ الْبَثِّ وَالْجِسْمُ مُدْنَفٌ^٢
 عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحَبِّ حِينَ يَعْنَفُ
 إِلَى بَرْقِ ثَغْرِ إِنْ بَدَا كَادَ يَخْطَفُ
 لِيُظْلَمَ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ^٣
 مُرْنَاتُ وُورَقٍ فِي ذُرَى الْأَيْكِ تَهْتِفُ
 وَلَا صَانَ رِيمٍ الْقَفْرَ خَدْرٌ مُسَجَّفُ^٤
 وَلَا حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعْظَمَ رَفْرَفُ^٥
 تَكْفٌ صُرُوفِ الْحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ^٦
 مَلِيكٌ فُقِيهِ كَاتِبٌ مُتْفَلِسُ
 وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفُ
 وَتَوْقِيْعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخَطْبِ أَحْرَفُ^٧

(١) مطرف : مصبوغ بالخناء .

(٢) مدنف : مريض من الوجع .

(٣) الظلم : الرقيق وماء الأسنان .

(٤) الجمان : حب النؤلؤ . الورق : جمع ورقاء وهي الخامة .

(٥) ريم : ظبي . مسجف : عليه ستور .

(٦) الرفرف : كل ما أعد للجلوس وهنا العرش .

(٧) الجعد : شديد الأسر .

(٨) الإد : العظم . يريد أن توقيعاته موزجة أى بليغة .

يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خَيْفَةً بِأَسِهِ
 حِذَارِكُ إِذْ تَبَغَى عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَى
 سَتَعْتَامُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى
 أَغْرُ مَتَى نَدْرُسُ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ
 إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَرَ مُطْنِبُ
 وَأَرْوَعُ لَا الْبَاغِي أَخَاهُ مُبْلَغُ
 مُمَرِّ الْقَوَى لَا يَمْلَأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ
 لَهُ ظِلُّ نَعْمَى يَذْكُرُ الْهَمُّ عِنْدَهُ
 جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ
 مَحَاسِنُ غَرَبُ الدَّمِ عَنْهَا مُفَلَّلُ
 تَنَاهَتْ فَعَقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلُ
 طَلَاقَةٌ وَجْهِ فِي مِضَاءٍ كَمَثَلُ مَا
 وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطَّرُ^١
 وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ
 كِتَابُ تَزْجَى أَوْ سَفَائِنُ تُجْدَفُ^٢
 يَرْقْنَا غَرِيبٌ مَجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ^٣
 وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرَفُ
 مَنَاهُ وَلَا الرَّاجِي نِدَاهُ مُسَوِّفُ
 وَليْسَ لِأَمْرِ فَائِتٍ يَتْلَهُفُ
 ظِلَالُ الصَّبَابِ لِدَاكِ أَنْدَى وَأَوْرَفُ^٤
 وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمَطِيْعِينَ تُزْلَفُ^٥
 كَهَامٌ وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ^٦
 سَنَاءٌ وَبُرْدُ الْفَخْرِ فِيهَا مُفَوِّفُ^٧
 يَرُوقُ فِرْنَدُ السِّيفِ وَالْحَدُّ مَرْهَفُ^٨

(١) الأبلج المتغطرف : السيد الشريف .

(٢) ستعاتمهم : ستخارمهم . التوى : الهلاك .

(٣) المجلل : المحتاج إلى التفسير والبيان . المصنف : المميز بفضه من بعض . وفي هذا البيت تصنع ولعله يريد ذكر « الغريب المصنف » وهو كتاب لأبي عبيد القاسم بن سلام .

(٤) ممر القوى : أصله شديد القتل ، فهو وصف من أوصاف الجبل ، ويريد به أنه مستحکم القوى .

(٥) الهم : الشيخ الكبير .

(٦) تزلف : تقرب .

(٧) غرب الدم : حده . كهام : كليل .

(٨) المفصل : من العاصلة وهي الخرزة تفصل بين الخرزتين في العقد . مفوف : رقيق .

(٩) فرند السيف : جوهره ولعانه .

على السيف من تلك الشهامة ميسم^١ وفي الروض من تلك الطلاقة زُخرف^٢
 سجايا لمن والاه كالأرى يُجتنى تعود لمن عاداه كالشرى يُنقف^٣
 يراقب منه الله (معتضد) به يد الدهر، يقسو في رضاه ويرأف^٤
 فقل للملوك الحاسديه متى ادعى سباق العتيق الفائق الشأو مقرف^٥
 أليس بنو عبَادِ القِبْلَةَ التي عليها لآمال البرية معكف^٦
 ملوك يُرى أحيائهم فخر دهرهم ويخلف موتاهم ثناءً مخلف^٧
 بهم باهت الأرض السماء فأوجه^٨ شمس وأيد من حيا المزن أو كف^٩
 أشارح معنى المجدي وهو معمس^{١٠} ومجزل حظ. الحمد وهو مسفسف^{١١}
 لعمر العدا المستدرجيك بزعمهم إلى غرة كادت لها الشمس تكسف^{١٢}
 لكالكوك صاع الغدر لوم سجية^{١٣} وكيل لهم صاع الجزاء المطفف^{١٤}
 لقد حاولوا العظمى التي لاشوى لها فأعجلهم عقد من الهم مخصف^{١٥}
 ولما رأيت الغدر هب نسيمة^{١٦} تلقاه إعصار لبطشك حر جف^{١٧}

(١) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل . ينقف : يشق لأخذ ما في داخله .

(٢) يد الدهر : مدى الدهر . يريد أنه يرأف ويعنف دائماً في سبيل مرضاة الله وحده .

(٣) العتيق : التجيب . الشأو : الغاية ، والفائق الشأو : السابق . مقرف : هجين .

(٤) أو كف : أغزر .

(٥) معمس : ميمم . مسفسف : هابط ونازل .

(٦) غرة : غفلة . لعمر العدا : يقسم بحياتهم متهكماً للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، وهنا يبدأ في التكلم عن حروب المعتضد وانتصاراته .

(٧) في الأصل المطفف : المنقوص المبخوس وقد يستعمل بمعنى الواقي التام وهو المراد هنا .

(٨) لا شوى لها : لا تصيب الأطراف بل تصيب المقاتل . فأعجلهم عقد : أي رأى وتدبير من عزمك . مخصف : محكم سديد .

(٩) الحرجف : البارد وصف بها الإعصار .

أَظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ لَقَدْ تَعَدُّ الْقَسَلَ الظُّنُونُ فَتُخْلِفُ^١
 دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرْتِكَ بِأَنَّهُ سَيْشِرَى وَيَدْوَى العَضُومَنَ حَيْثُ يَشَافُ^٢
 تَحَمَّلْتَ عِبَادَةَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلَّهُمْ بِنِعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنَعُّمِ مُتْرَفٌ
 فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ بِسِفِكَ قَاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
 وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسَّرُورِ مُظَلَّلٌ وَبِالْحِظِّ فِي نَيْلِ المَنَى مُتَكَنَّفٌ^٣
 بِشِيرٌ بِأَعْيَادٍ تُوَفِّيكَ بَعْدَهُ كَمَا يَنْسِقُ النِّظْمَ المَوَالِي وَيَرْصِفُ
 تُجَرِّدُ فِيهِ سَيْفَ دَوْلَتِكَ الَّذِي دِمَاءُ العِدَادِ دَابًّا بِغَرْبِيَّةٍ تُظَلَّفُ^٤
 هُوَ الصَّارِمُ العَضْبُ الَّذِي العِزْمُ حَدُّهُ وَحَلِيَّتُهُ بَذْلُ النَّدَى وَالتَّعَفُّفُ
 هَمَامٌ سَمَا لِلْمَلِكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفٌ^٥
 كَرِيمٌ يَعِدُّ الحَمْدَ أَنْفَسَ قِنِيَّةٍ فَيَوْلَعُ بِالفِعْلِ الجَمِيلِ وَيُشْغَفُ^٦
 غَدَاً بِخَمِيْسٍ يُقْسِمُ العِغْمُ إِنَّهُ لِأَحْفَلُ مِنْهُ مَكْفَهْرًا وَأَكْثَفُ^٧
 هُوَ العِغْمُ مِنْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ بَرْقُهُ وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ
 وَلَا قَضِينَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ وَكُلُّ مَا يَرْضِيكَ دَاعٍ فَمَلْحِفٌ^٨

(١) الفسل : النفض الرذل .

(٢) يشرى العضو : يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى الكي . يشاف : تكوى شافته أى قرحة

تذهب بالكى .

(٣) متكنف : مشمول .

(٤) بغريبه : بجديه . تظلف : تهدر .

(٥) الغلام اليافع : الذى شارف الاحتلام . المخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم

يقول قد احتلم وأدرك وبعضهم يقول غير مدرك .

(٦) قنية : مكسب .

(٧) خميس : جيش . مكفهراً : مسوداً .

(٨) أداؤه : أى أداء الصلاة فى العيد . ملحف : ملح .

قرناً بحمد الله حمدك إنه
 وعُدنا إلى القصر الذي هو كعبة
 فإذا نحن طالعناه والأفق لابس
 رأيناك في أعلى المصلى كأنما
 ولما حضرنا الإذن والدهر خادم
 وصلنا فقبلنا الندى منك في يد
 لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة
 ولولاك لم يسهل من الدهر جانب
 لك الخير أنى لي بشرك نهضة
 أفدت بهم الحال منى غرة
 وبواته دنياك دار مقامة
 وكم نعمة ألبستها سندسية
 مواهب فياض اليمين كأنما
 فإن أك عبداً قد تملك رقه

لأوكد ما يحظى لديه ويؤلف
 يُغاديه منا ناظر أو مطوف
 عجاجته والأرض بالخيل ترجف
 تطلع من محراب داود يوسف
 تشير فيمضي والقضاء مصرف
 بها يتلف المال الجسم ويخلف
 وأمنت حتى ما بنفس تخوف
 ولا ذل منقاد ولا لأن معطف
 وكيف أودى فرض ما أنت مسلف
 يقابلها طرف الجموح فيطرف
 بحيث دنا ظل ودل مقطف
 أسربلها في كل حين وألحف
 من المزن تمرى أو من البحر تغرف
 فأرفع أحوالى وأسنى وأشرف

(١) العجاجة : الغبار في الحرب .

(٢) خصاصة : فقر .

(٣) المعطف : السيف .

(٤) نهضة : قدرة . مسلف : مقدم .

(٥) بهم : أسود . يقول : أكسبت سواد الحال منى غرة بيضاء يواها طرف الطموح الذي يمد

بصره إلى الشيء فيطرف أى من قويم فلان مطروف العين أى معلق داخل .

(٦) أسربلها : ألبسها .

(٧) تمرى : تدر وتسكب .

٤ - الرثاء

توفى أبو الحزم سنة ٤٣٥ للهجرة وتولى من بعده ابنه أبو الوليد ، فنظم الشاعر هذه القصيدة التي يرى بها الفقيه ويعزى الابن ويمدحه . ويبدو أن ابن زيدون قد أعجب بصياغة هذه القصيدة فردد كثيراً من معانيها في مراثيته الهامة ؛ ولذا كانت قصيدته التي رثى بها أم أبي الوليد تنظر إلى هذه المراثية وهي على وزنها ورويها ، وقصيدته التي رثى بها المعتضد وعزى المعتمد هي أيضاً على وزنها ورويها وفيها يكرر الشاعر كثيراً من أبيات القصيدة السابقة . ونلاحظ أن الشاعر يتخذ رثاء الملوك ومن يلوذ بهم وسيلة لمدح من سيخلفهم . وهو في هذا الغرض فاتر العاطفة على رغم جودة سبكه ومتانة صوغه قال :

ألم تر أن الشمس قد ضَمَّها القبرُ وأنَّ قد كفانا فقدها القمرُ البدرُ
وأنَّ الحَيَا إنَّ كان أَقْلَعَ صَوْبُهُ فقد فاضَ للآمالِ في إثره البحرُ^١
إِسَاءَةٌ دَهْرٌ أَحْسَنَ الفِعلَ بعدها وذنُبُ زمانٍ جاءَ يَتَّبِعُهُ العُذرُ
فلا يَتَهَنَّ الكاشِحونَ فما دَجَا لنا الليلُ إلا ريثما طَلَعَ الفجرُ^٢
وإنَّ يَكُ ولى جَهْورٌ فمحمَّد خليفته العَدْلُ الرِّضَا وابنه البَرُ
ففي يجمع المجدَ المَفرَّقَ هَمَّةً وَيُنظِمُ في أخلاقه السُّوددُ النَّثرُ
أهابتُ إليه بالقلوبِ مَحَبَّةً هي السحرُ للأهواءِ بِلِ دونها السحرُ
سرتُ حيثُ لا تسرى من الأنفُسِ المنى ودبَّتْ دُبيباً ليس تُحسِنُهُ الخمرُ
لبسنا لديه الأَمَنَ تَندي ظلالُهُ وزهرةَ عيشٍ مثلَ ما أينعَ الزهرُ

(١) الحيا : المطر . صوبه : انصبابه .

(٢) الكاشحون : الأعداء .

وعادتُ لنا عاداتُ دنيا كأنها
مليكٌ له منا النصيحةُ والهوى
فقل للحيارى قد بدا علمُ الهدى
أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى
دع الدهرَ يفجعُ بالذخائرَ أهله
تهونُ الرزايا بعدُ وهى جليلةٌ
فقدناكَ فقدانَ السحابةِ، لم يزل
مسايعكَ حلّىً لليالى مُرَصَّعٌ
فلا تبعدنْ إن المنيةَ غايةٌ
عزاءً فذتكَ النفسُ عنه فإن ثوى
وما الرزْمُ فى أن يُودعَ التُّربَ هالكٌ
أمامكَ من حفظِ الإلهِ طليعةٌ
وما بكَ من فقرٍ إلى نصرٍ ناصرٍ
لكَ الخيرُ إنى واثقٌ بكَ شاكرٌ

بها وَسَنٌ أَوْ هَزٌّ أَعْطَفَهَا سَكَر
ومنه الأيادى البيضُ والنَّعم الخُضِر
وللطامعِ المغرورِ قد قُضِيَ الأمرُ
قلوبٌ منها الصبرُ لو ساعدَ الصبرُ
فما لنفيسٍ مُذْطواكَ الردى قَدْرُ
ويُعرَفُ مذفارقَتنا الحادِثُ النُّكرُ
لها أثرٌ يُثنى به السهلُ والوعرُ
وذِكرُكَ فى أَرْدانِ أيامها عِطْرُ
إليها التناهى طالَ أو قَصَرَ العُمُرُ
فإنك لا الوانى ولا الضَّرِعُ العُمُرُ
بل الرزْمُ كلُّ الرزْمِ أن يَهْلِكَ الأجرُ
وحولكَ من آلائه عسكرٌ مَجْرُ
كَفَتَكَ من الله الكلاءةُ والنصرُ
لِمَثْنَى أَيْادِيكَ الَّتِي كُفِّرُهَا الكُفْرُ

(١) أردان : أكام .

(٢) الضرع : الضعيف . العمر : من لم يجرب الأمور .

(٣) المجر : الكثير .

(٤) الكلاءة : الرعاية والحفظ .

(٥) مثنى : مضاعف .

تَحَامَى الْعِدَا لِمَا اعْتَلَقْتُكَ جَانِبِي
يَلِينُ كَلَامٌ كَانَ يَخْشَنُ مِنْهُمْ
وَقَالَ الْمَنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُوا
وَيَفْتَرُّ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرُ الشَّرُّ^٢
لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فَخْرُ
فَصَدَّقُ ظَنُونًا لِي وَفِيَّ فَإِنِّي
فَتَقْرِيْبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُكَ الْوَفْرُ^٣
وَمَنْ يَكُ لِلدُّنْيَا وَاللُّوْفْرِ سَعِيَهُ

(١) اعتلق فلاناً وبه : هويه وأحبه .

(٢) النظر الشرر : النظر الغاصب وما فيه إغراض .

(٣) الوفر : المال .

٥ - الرسالة الهزلية

أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط . بجهله . البين
سقطه^(١) ، الفاحش غلظه ، العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى
عن شمس نهاره ، الساقط . سقوط . الذباب على الشراب ،
المتهافت تهافت الفراش في الشهاب^(٢) . فإن العجب أكذب^(٣) ،
ومعرفة المرء نفسه أصوب . وإنك راسلني مستهدياً ، من
صلى ، ما صفرت^(٤) منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خلتي
لما قرعت دونه صنوف أشكالك ، مرسلًا خليلتك مرتادة^(٥) ،
مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك أنك ستنزله
عنها إلى ، وتخلف ، بعدها ، على :

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل^(٦)
ولا شك أنها قلتك إذ لم ترض بك ، وملتك إذ لم

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) أى المعجب بكذب نفسه لأنه يتخيل في نفسه مالا صحة له .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) الخلية هنا التى كان يرسلها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٦) البيت للمتنى والنائل : ما ينال .

تَغَرَّ عَلَيْكَ ، فَإِنِهَا أَعَذَرْتُ^(١) فِي السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ
 فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةٌ أَنَّ المَرُوعَةَ لَفْظٌ . أَنْتَ مَعْنَاهُ ،
 وَالإِنْسَانِيَةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهُيُولَاهُ^(٢) ، قَاطِعَةٌ^(٣) أَنَّكَ
 انْفَرَدْتَ بِالجَمَالِ ، وَاسْتَأْثَرْتَ بِالكَمَالِ ، وَاسْتَعْلَيْتَ فِي
 مَرَاتِبِ الجَلَالِ ، وَاسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الخِلَالِ ، حَتَّى
 خَيَّلْتَ أَنَّ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاسِنَكَ^(٤) فغَضِضْتَ مِنْهُ ،
 وَأَنَّ امْرَأَةَ العَزِيزِ^(٥) رَأَتْكَ فَسَلَّتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ^(٦) أَصَابَ
 بَعْضَ مَا كَنَزْتَ ، وَالنَّظْفَ^(٧) عَشَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزْتَ^(٨) ،
 وَكِسْرَى^(٩) حَمَلَ غَاشِيَتَكَ^(١٠) ، وَقَيْصَرَ^(١١) رَعَى مَا شَيْتَكَ ،
 وَالإِسْكَندَرَ قَتَلَ دَارًا^(١٢) فِي طَاعَتِكَ ، وَأَرْدَشِيرَ^(١٣) جَاهَدَ مَلُوكَ

(١) أعذرت : أنت بما صارت به معذورة . أى أن صاحبه بلغت الجهد في السفارة وهي وساطتها في الصلح .

(٢) هيولاه : مادته وحقيقته .

(٣) قاطعة : موقنة .

(٤) حاسنك : باراك في الحسن .

(٥) امرأة العزيز مشهورة في قصة يوسف وأنها أحبته .

(٦) قارون : من قوم موسى ، اشتهر بالكنوز والغمي .

(٧) النظف : رجل من تميم نهب أموالا لكسرى في الجاهلية فأثرى ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة .

(٨) من الرکز : وهو المال الدفين .

(٩) من ملوك الفرس .

(١٠) الغاشية : حديدة فوق مؤخرة الرجل .

(١١) ملك الروم .

(١٢) ملك الفرس الذي انتصر عليه الإسكندر .

(١٣) أردشير من ملوك الفرس ومثله الضحاك .

الطوائف بخروجهم عن جماعتك ، والضحَّاك استدعى
 مُسالمَتَكَ ، وَجَدِيْمَةَ^(١) الأبرشَ تمنى منادمتك ، وشيرين^(٢) قد
 نافست بُورانَ فيكَ ، وَبَلْقِيَسَ^(٣) غايرتَ الزَّبَاءَ عَلَيْكَ ،
 وَأَنَّ مالِكَ بنَ نُويْرَةَ^(٤) ، إِنما أَرْدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ^(٥) بنَ جعفرِ
 إِنما رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكُلَيْبَ^(٦) بنَ رَبِيْعَةَ إِنما حَمَى المَرْعَى
 بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاساً^(٧) إِنما قَتَلَهُ بِأَنْفَتِكَ ، وَمُهْلَهلاً^(٨) إِنما
 طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهَمَّتِكَ ، وَالسَّمْوَوَّلَ^(٩) إِنما وَفَى عَن عَهْدِكَ ،
 وَالأَحْنَفَ^(١٠) إِنما احْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِمًا إِنما جَادَ بِوَفْرِكَ ،
 وَلَقِيَ الأَضْيافَ بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدَ^(١١) بنَ مُهْلَهْلِ إِنما رَكِبَ
 بِفِخْذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكَ^(١٢) بنَ السُّلَكَةِ إِنما عَدَا عَلَي رِجْلَيْكَ ،

(١) من ملوك العرب في الجاهلية .

(٢) شيرين : زوجة كسرى ، وبوران : ابته .

(٣) بلقيس : ملكة سبأ والزبباء ملكة تدمر .

(٤) من شجعان العرب في الجاهلية والإسلام قتل في حروب الردة ، الزادقة أن يكون للشريف تابع

يجلس عن يمينه .

(٥) كان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك .

(٦) هو رئيس الحيين من بكر وتغلب .

(٧) جساس : صهر كليب وقاتله .

(٨) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة .

(٩) اشتهر السموجل بالوفاء فضرب به المثل .

(١٠) هو الأحنف بن قيس وقد اشتهر بمجلمه .

(١١) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية وقد أدرك الإسلام وأسلم .

(١٢) عداء مشهور في الجاهلية .

وعامر^(١) بن مالك إنما لاعب الأسنّة بيدك ، وقيس^(٢) بن زهير إنما استعان بدعائك ، وإياس^(٣) بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ، وسحبان إنما تكلم بلسانك ، وعمرو ابن الأهتم^(٤) إنما سحر بيانك ، وأن الصلح^(٥) بين بكر وتغلب تم برسالتك ، والحمالات^(٦) بين عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك وأن احتيال هرم^(٧) ، لعلمة وعامر حتى رخصيا ، كان ذلك عن إشارتك ، وجوابه لعمر^(٨) ، وقد سأله عن أيهما كان ينفر ، وقع عن إرادتك ، وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك ، وقتيبة^(٩) فتح ما وراء النهر بسعدك ، والمهلب^(١٠) أو هن شوكة الأزارقة بأيديك ،

(١) عامر الملقب بملاعب الأسنّة من شجعان العرب في الجاهلية .

(٢) قيس : سيد عبس وداهيتا في حروبها .

(٣) قاضي البصرة في أواخر العصر الأموي واشتهر بذكائه .

(٤) سحبان من بلغاء العرب مات في عصر معاوية .

(٥) من سادات تميم وخطبائها في الجاهلية والإسلام .

(٦) هو صلح حرب البسوس .

(٧) الحمالات : الديات .

(٨) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب لرجحان عقله ، واحتكم إليه علقمة

وابن عمه عامر ، وهما جميعاً من بني عامر بن صعصعة ، فاحتال لهما حتى لا يحكم لأحدهما على الآخر ففتح حرب بين عشيرتهما .

(٩) هو عمرو بن الخطاب ، وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك ؟ فقال لو

قلت الآن كلمة لنشبت الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب في المنافرة .

(١٠) بطل حروب الشرق في عهد الوليد بن عبد الملك .

(١١) المهلب : أشهر قواد الأمويين في حروب الخوارج .

وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيِّدِكَ ، وَأَنَّ هِرْمَسَ ^(١) أَعْطَى بِلِينُوسَ ^(٢) ما أَخَذَ مِنْكَ ، وَأَفْلَاطُونَ أوردَ على أَرِسْطَطَالِيَسَ ما نَقَلَ عَنْكَ ^(٣) ، وَبَطْلِيمُوسَ ^(٤) سَوَى الْأُصْطُرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ ، وَصَوَّرَ الكُرَّةَ على تَقْدِيرِكَ ، وَبِقَرَاطِ. ^(٥) عَلِمَ العِلَلَ والأَمْرَاضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ ^(٦) عَرَفَ طَبَائِعَ الحَشَائِشِ بِدَقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فى العِلاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ المِزاجِ ، وَأَسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الأَعْضاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فى الدَّاءِ والدَّواءِ ، وَأَنَّكَ نَهَجْتَ لِأَبِي مَعْشَرَ ^(٧) طَرِيقَ القَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جابِرَ بنَ حَيَّانَ ^(٨) على سِرِّ الكِيميائِ . وَأَعْطَيْتَ النِّظَامَ ^(٩) أَصْلاً أَدْرَكَ بِهِ الحَقائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِيِّ ^(١٠) رَسْماً اسْتَخْرَجَ بِهِ الدَّقائِقَ ، وَأَنَّ صِناعَةَ الأَلحانِ اِخْتراعُكَ ، وَتأْلِيفَ الأوتارِ والأَنقارِ

(١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(٢) بليينوس : خليفة هرمس .

(٣) أفلاطون أستاذ أرسططاليس ، وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(٤) بطليموس : فيلسوف يوناني اشتهر بالفلك والهندسة والجغرافيا ، والاصطراب : ميزان الشمس ،

وبه يعرف مقدار الساعات .

(٥) من أطباء اليونان .

(٦) عالم وطبيب يوناني .

(٧) أبو معشر : منجم عباسى مشهور ، والقضاء هنا : القدر ، وطريقاه : الخير والشر .

(٨) من أعلام العرب فى الكيمياء .

(٩) النظام : من أئمة المعتزلة وهو أستاذ الجاحظ .

(١٠) الكندى : أول فلاسفة العرب .

توليدك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى^(١) بارى أقلامك . وسهل بن هارون^(٢) مدون كلامك ، وعمرو بن بحر^(٣) مستمليك ، ومالك بن أنيس^(٤) مستفتيك ، وأنك الذى أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدد الماهية^(٥) وبين الكيفية والكمية ، وناظر فى الجواهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ، وفك المعنى^(٦) ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وضرب قسم ، وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال ، وبنى وأغرب ، ونفى وتعجب ، ووصل وقطع ، وثنى وجمع ، وأظهر وأضمر ، واستفهم وأخبر ، وأهمل وقيد ، وأرسل وأسند^(٧) ، وبحث ونظر ، وتصفح الأديان ، ورجح بين مذهبي ما فى وغيلان^(٨) ، وأشار

(١) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أبلغ الكتاب المتقدمين .

(٢) سهل بن هرون : بليغ مشهور وهو أستاذ الجاحظ .

(٣) هو الجاحظ .

(٤) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذى دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(٥) يريد أنه حد الحدود والتعريفات ، وهو تهكم واضح .

(٦) المعنى : الملتزم من اللفظ .

(٧) إشارة إلى المستند فى الحديث ، والمرسل وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٨) ما فى : صاحب نحلة دينية عند الفرس تسمى المانوية ، وكان ذلك قبل الإسلام ، وهو

يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام . وغيلان أول من تكلم فى القدر بين المسلمين فى العصر

الأموى وهو دمشق .

بِذَبْحِ الْجَعْدِ^(١) ، وَقَتْلِ بَشَارِ بْنِ بُرَيْدٍ ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ
خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ ، فَأَحَلَّتْ الْبِحَارَ
عَذْبَةً ، وَأَعَدَّتْ السَّلَامَ^(٢) رَطْبَةً ، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ أَمْسًا ،
وَزِدْتَ فِي الْعُنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا ، وَأَنَّكَ الْمَقُولُ فِيهِ : كُلُّ
الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^(٣) ، وَ :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(٤)
وَالْمَعْنَى بِقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ
وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

ذَكَرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا
فَكَدَمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ^(٥) ، وَاسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ
فِي غَيْرِ ضَرَمٍ^(٦) ، وَلَمْ تَجِدْ لِرُمْحٍ مَهْزًا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحْزًا^(٧) ،
بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ^(٨) ، وَتَمَنَيْتُ الرَّجُوعَ بِخُفْيٍ

(١) الجعد : مولى لبني الحكم ، تكلم في القدر وغيره ، وتجاوز الحدود فقتله خالد القسري في العراق في أثناء ولايته هناك .

(٢) السلام : الحجارة الصلبة .

(٣) مثل يضرب في الشيء الذي يزيد غيره ويفضله .

(٤) هذا البيت لأبي نواس من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٥) عضضت في غير موضع اللعس ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه .

(٦) نفخت في غير ضررم : أى نفخت في رماد لا في نار .

(٧) المحز : مكان الحز أى القطع .

(٨) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه في مطلبه .

حُنَيْنٌ^(١) ، لَأَنِّي قُلْتُ : « لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ^(٢) »
وَأَنشَدْتُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبٌ^٣
وَنَخَرْتُ^(٤) ، وَبَسَّرْتُ^(٥) ، وَعَبَّسْتُ^(٦) وَكَفَّرْتُ . وَأَبْدَأْتُ^٤
وَأَعَدْتُ^(٧) ، وَأَبْرَقْتُ وَأَرَعَدْتُ^(٨) ، « وَهَمَمْتُ^(٩) » وَلَمْ أَفْعَلْ
وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ،
لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَدَالِ الدُّمُسْتَقِ^(١٠) ، وَالنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ
عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعَقُوبَةُ مَمْكَنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمُذْنِبُ .

وَهَبَّهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بَعَيْنٌ كَلِيلَةٍ عَنِ عَيْبِكَ ، مَلُوهَا
حَبِيبَهَا ، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ ، وَكَانَتْ أَنْ حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ،
وَوَسَمَتْكَ بِسِيَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ،

(١) مثل يضرب لمن يرجع بأخيه .

(٢) شطر بيت هو : « أرب يبول الثعلبان برأسه - لقد هان من بالت عليه الثعالب » قاله رجل من بني سليم كان يعبد صنماً ، فرأى يوماً ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى الرسول وأسلم .

(٣) البيت من قصيدة في الرثاء لأبي تمام .

(٤) نخرت : من النخير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٥) بسر : غضب .

(٦) عبس : أظهر العيوس والغضب .

(٧) أبدأت وأعدت : كررت كلاماً يسوءك .

(٨) يقال أبرق وأرعد إذا هدد .

(٩) هممت بشيء خطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٠) الدمستق : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، والقذال : القفا .

بل صدقت سن بكرها فيما ذكرته عنك^(١) ، ووضعت الهناء
مواضع النقب^(٢) بما نسبته إليك ، ولم تكن كاذبة فيما
أثنت به عليك ، فالمعدي تسمع به خير من أن تراه :

هجين القذال^(٣) ، أرعن السبال^(٤) ، طويل العنق والعلاوة^(٥) ،
مفرط الحمق والغباوة ، جاف الطبع ، سيء الجابة والسمع^(٦) ،
بغض الهيئة ، سخيף الذهب والجيفة ، ظاهر الوسواس ،
متن الأنفاس ، كثير المعاييب ، مشهور المثالب ، كلامك
تمتمة^(٧) ، وحديثك غممة^(٨) ، وبيانك فهفة^(٩) وضحكك
قهقهة ، ومشيئك هرولة ، وغناك مسألة^(١٠) ، ودينك زندقة ،
وعلمك مخرقة^(١١) :

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق^(١٢)

(١) يقال صدقت سن بكرها : أي لم تقل إلا صدقاً .

(٢) مثل يضرب لمن يضع الأمر في موضعه ، والهناء : القطران ، والنقب مبادئ الحرب في

البيعر . . .

(٣) كناية عن خسة الأصل .

(٤) السبال : الشنب ، يريد أنه أحمق .

(٥) العلاوة : الرأس ، وطول العنق والرأس عند العرب دليل الحمافة .

(٦) الجابة : الإجابة .

(٧) التردد في التاء .

(٨) الغممة : أن يسمع الصوت ولا تتبين الكلمات والحروف .

(٩) عى عن النطق بتريد الفاء .

(١٠) يريد أن ماله من سؤال الناس .

(١١) مخرقة : من الحرق وهو الحمق .

(١٢) البيت لأبي تمام من قصيدة في الهجاء .

حتى إنَّ باقلاً^(١) موصوفٌ بالبلاغةِ إذا قرنَ بك ، وهَبْنَقَةً^(٢)
مُسْتَوْجِبٌ لَأَسْمِ الْعَقْلِ إذا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا^(٣) مَأْثُورٌ
عنه يُمْنُ الطَّائِرِ إذا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوْجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالِاغْتِبَاطُ
بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخِيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقْرٌ^(٤) . كَيْفَ
رَأَيْتَ لَوْمَكَ لِكِرْمِي كِفَاءً^(٥) ، وَضَعْتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ؟
وَأَنَّى جَهَلْتَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا
تَقَعُّ عَلَى الْأَفْهَى ؟ وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ .
وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لَا يَتَقَارَبَانِ ، وَقُلْتَ : الْخَبِيثُ
وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ^(٦) ، وَمَثَلْتَ :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلاً عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ^(٧) ؟

وَذَكَرْتَ أَنِّي عَلِقُ^(٨) ، لَا يَبَاعُ مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ
مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَنْ أَجَادَ ؟ مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا

(١) باقل : يضرب به المثل في العي .

(٢) هبنقة : يضرب به المثل في الخبل وضعف العقل .

(٣) مثنى بالمدينة في العصر الأموي كانوا يتشاهمون منه .

(٤) سقر : جهنم .

(٥) كفاء : مكاناً ومناظراً .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يستوى الخبيث والطيب » .

(٧) البيت لعمر بن أبي ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيلاً بن عمر بن عبد العزيز .

(٨) العلق : النفيس .

قد تَهَيَّأتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ^(١) ! ولولا أَنَّ جُرْحَ
العَجْمَاءِ جُبَّارٌ^(٢) ، لَلْقَيْتَ مِنَ الكَواعِبِ ما لاقى يَسَارٌ^(٣) ،
فما هَمَّ إِلَّا ببعضِ ما هَمَمْتُ بِهِ ، ولا تعرَّضَ إِلَّا لِأيسرِ
ما تعرَّضتَ له ، أَيْنَ ادعَاؤُكَ رِوايةَ الأشعارِ وتعاطيكَ حفظَ
السَّيرِ والأخبارِ ، أما ثابَ إِلَيْكَ قولُ الشاعرِ :
بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلٌ مِسْمَعٌ وَتَعَقُّدُ فِي أَكْفَائِهَا الحَبِطَاتُ^(٤)
وهلَّا عَشَّيتَ^(٥) ولم تَغْتَرَّ ، وما أَشكُ أَنَّكَ تَكُونُ وافِدًا
الْبَرَّاجِمِ^(٦) أَوْ تَرَجُّعُ بِصَحيفَةِ المِثْلَمِسِ^(٧) ، وهل عَضَلَنِي^(٨)
هُمامُ بنُ مُرَّةَ فإقولُ : زَوْجٌ مِنْ عُوْدٍ ، خَيْرٌ مِنْ قَعُودٍ .
ولعمري لو بلغتُ هذا المبلغَ لا رتفعتُ عن هذه الحِطَّةِ ،

(١) الترفية : الرفاهية .

(٢) حديث للرسول صل الله عليه وسلم ، والعجماء : البهيمة ، والجبار : الدم الهدر ، والمعنى
أن البهيمة إذا جرحت لا دية لها ولا قصاص ، ويريد ابن زيدون أن يستهين بابن عبدوس .

(٣) يسار : عبد دميم أذنة مولاته حين توهم أنها تحبه .

(٤) البيت للفرزدق ، وهو في هجاء حى الحبطات ، والمعنى أن بنى دارم يصهبون إلى بنى مسمع ،
أما الحبطات فيصهبون إلى من يشابههم في الحسة .

(٥) عشيت : رفقت .

(٦) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند ، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة ،
والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم لنار له عندهم ،
وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتبس بقية المائة إذ مر رجل اسمه عمار فاشتم رائحة الفئار
فظن أن الملك اتخذ طعاما فعدل إليه فقليل له : من أنت ، فقال : أنا وافد البراجم ، فألقى في النار .

(٧) المثلثس : شاعر جاهل وقصته معروفة مع عمرو بن هند ملك الحيرة .

(٨) عضل المرأة : منعها من الزواج ، وكان همام بن مرة قد منع بناته الأربع من الزواج وخرجن
على رغبته فضرب به وهن المثل .

ولا رَضِيتُ بهذه الخطة ، فالنارُ ولا العارُ ، والمنيةُ ولا الدنيةُ ،
والحرَّةُ تجوعُ ولا تأكلُ بِشَدِيِّهَا^(١) :

فكيفُ وفي أبناءِ قَوْمِي مَنْكَحُ وفتريانُ هزَّانَ الطَّوَالُ الغرائقةُ^(٢)

وما كنتُ لأَتَخَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، ولا أَمْتَطِي الثَّوْرَ
بعَدَ الْجَوَادِ ، فَإِنَّمَا يَتِيَمُّ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، ويرعى الهشيمَ^(٣) ،
مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ^(٤) ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ^(٥) مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ .
ولعلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صِبْوَتِي إِلَيْهِ ، وشهدتَ مساعفتي
له ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، ورياحينِ الْمِصْرِ ، الذينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ
عُلُوَّ هِمَمٍ ، والرياضُ طِيبَ شِيمٍ :

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقْلًا لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مثلَ النجومِ التي يَسْرِي بها الساري

تَحِنُّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا^(٦) ، ما أَنْتَ وَهُمْ؟ وَأَنْتَى تَقَعُ مِنْهُمْ؟

وهل أَنْتَ إِلَّا وَأَوْ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وكالْوَشِيظَةِ^(٨) فِي الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ .

(١) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الأحداث .

(٢) اسم قبيلة ، والفرانقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٣) الهشيم : الثبت اليابس .

(٤) الحميم : الثبت الرطب .

(٥) الصعب : الذي لا يطيع فهو ضد الذلول .

(٦) البيت لشاعر يسمى العرندس .

(٧) مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، والقدح : أحد قدامح الميسر .

(٨) الوشيظة : التتو في العظم .

وإن كنت إنما بلغت قعر تابوتك^(١) وتجافيت عن
 بعض قوتك ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ^(٢) ، وجررت هميانك^(٣) ،
 واختلت في مشيتك ، وحذفت فضول لحيتك ، وأصلحت
 شاربك ، وَمَطَّطْتَ حَاجِبِكَ وَرَفَقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ^(٤) ، واستأنفت
 عقد إزارك^(٥) ، رجاء الاكتنان فيهم ، وَطَمَعًا فِي الْاِعْتِدَادِ
 مِنْهُمْ ، فظننت عجزًا ، وأخطأت الغرض . والله لو كسك
 مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ^(٦) ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَّةُ^(٧) بِالْقُرْطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ
 عمرو^(٨) الصَّمْصَامَةَ ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ^(٩) عَلَى النَّعَامَةِ ، مَا
 شَكَّكَ فِيكَ ، وَلَا سَتَرْتَ أَبَاكَ^(١٠) ، وَلَا كُنْتَ إِلَّا ذَاكَ .
 وَهَبَكَ سَامِيَّتَهُمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسْبِ ، وَجَارِيَتَهُمْ فِي

(١) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وتجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستفضله من قوتك .

(٢) الأردن : الأكام .

(٣) الهيمان هنا : السروال .

(٤) العذار : ما تنبت على الخد من الشعر .

(٥) كناية عن التجميل في الثياب .

(٦) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب بذلك لتحريقه مائة من العرب ، ويقال إن وفود العرب كانت عنده ، فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذها .

(٧) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالشام اشتهرت بقرطين أهدتهما إلى الكعبة .

(٨) هو عمرو بن معديكرب الزبيدي اشتهر بسيفه الصمصامة وأدرك الإسلام وأسلم وأبلى في

الفتوح .

(٩) النعام : فرس الحارث بن عباد البكري سيد وائل في الجاهلية .

(١٠) ولا سترت أباك : أى لم تخف على شأنك ونسبك .

غاية الظرف والأدب ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ لِكَاعٍ (١)
 إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبُ خَالِي الذَّرَاعِ (٢) وَأَيِّنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ
 لَا أُغْلَبُ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخْسَّ مِنْهُ (٣) ، وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي
 فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسُوءُ الْكَيْلَةِ (٤) ، وَيَقْتَرُنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا
 الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ (٥) :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحَرُصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ (٦)
 مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنَّ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ (٧) ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ عَلَى
 ظَلْعِكَ (٨) ، وَلَا تَكُنْ بَرَأَقِشَ (٩) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ
 الْمُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ بِكَ الْعِشَاءُ عَلَى
 سِرْحَانٍ (١٠) ، وَبِكَ لَا بَطْطِي أَعْفَرَ (١١) ، قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَعْنَيْتُ
 شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا :

(١) القعيدة : الزوجة . والكاع : اللثيمة .

(٢) خالي الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالي اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .

(٣) المعنى : كيف أوازن بين زوج أنفرد به ، وآخر لا أزال منه إذ فضلة غيره من الزوجات ؟

(٤) مثل يضرب في الخلتين السيتين تجتمعان ، والحشف : أراداً التمر .

(٥) امرأة من بني سلول . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل ، فظهر في رقبته

غدة ، ومات في بيت سلولية (من بني سلول) فقال : غدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية .

(٦) البيت لأبي العتاهية . (٧) تقدر بذرعك : تقيس الأمر بمجهودك .

(٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه . وتربع : تقيم ، والظلع : العرج في البعير .

(٩) يشير إلى المثل : جنت على أهلها براقش ، وهي كلبة غزا أهلها قوم ، فلم يعرفهم حتى

نبحت ، فكانت شتواً عليهم .

(١٠) السرحان : الذئب .

(١١) مثل يضرب للشماتة ، والأعفر : الذي لونه لون العفار أي التراب .

إِن الْعَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ ^(١) وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي ^(٢)
 وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ،
 كُنْتَ قَدْ أَشْرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قَلْتَ :
 جَعْبَعَةٌ وَلَا طِخْنَ ^(٣) ، وَرُبَّ صَلْفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ^(٤) ، وَأَنْشَدْتَ :
 لَا يُؤْيِسُنَكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلٌ تُغْلِظُهُ وَإِنْ جَرَحَا ^(٥)
 فَعُدْتَ لِمَا نَهَيْتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ،
 بَعَثْتُ مَنْ يَزْعُجُكَ إِلَى الْخَضْرَاءِ ^(٦) دَفْعًا ، وَيَسْتَحْفُكُ نَحْوَهَا
 وَكَزًّا ^(٧) وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا عَيْبٌ أَكَّارُهَا بِكَ ^(٨) ،
 وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا ^(٩) عَلَيْكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ،
 لِيَتَذَوَّقَ وَيَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :
 فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

(١) مثل للتحذير .

(٢) مثل للتحذير أيضاً والبيت للحارث بن وعدة اليشكري .

(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحين .

(٤) الصلف : قلة الخير ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد . وهو مثل يضرب لمن

يتوعد من غير أن يفعل .

(٥) البيت لبشار بن برد .

(٦) الخضراء : الناحية المزروعة من البلد .

(٧) الوكز : ضرب الظهر مع الدفع .

(٨) الأكارون : الفلاحون .

(٩) النواطير : جمع فاطور وهو البستاني .

٦ - الرسالة الجدّية

يا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَادِي لَهُ ، وَاَعْتَدَادِي بِهِ ،
 وَاَعْتَمَادِي عَلَيْهِ ، أَبْقَاكَ اللَّهُ مَاضِيَّ حَدِّ الْعَزْمِ ، وَارَى زَنْدِ
 الْأَمَلِ^(١) ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ . إِنَّ سَلْبَتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
 لِبَاسِ نِعْمَاتِكَ ، وَعَظَّلَتَنِي مِنْ حُلَى إِيْنَايِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى
 بَرُودِ إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حِيَاطَتِكَ ، وَغَضَضْتَ
 عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ،
 وَسَمِعَ الْأَصْمُ ثَنَائِي عَلَيْكَ ، وَأَحْسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ ،
 فَلَا غَرَوْ قَدْ يَغْصُ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفَى
 بِهِ . وَيُوْتِي الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّي فِي أُمْنِيَّتِهِ ،
 وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصِ :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدِ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى وَتَهُونُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحُسَّادِ

وَإِنِّي لَا تَجَلَّدُ وَأَرَى الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ ،
 فَأَقُولُ : هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا سِوَارُهَا ، وَجَبِينُ عَصَّةٍ
 إِكْلِيلُهُ^(٢) ، وَمَشْرِفِي^(٣) أَلْصَقَهُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمْهَرِي^(٤)

(١) وري الزند : أخرج منه النار واقتدحه .

(٢) الإكليل : التاج .

(٣) المشرف : السيف .

(٤) السمهري : الريح .

عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفُهُ^(١) ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبٌ
الَّذِي يَقُولُ^(٢) :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلِيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرَحِمُ
هَذَا الْعَتَبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبِيُّ غَمْرَةٌ ثُمَّ
تَنْجَلِي^(٣) ، وَهَذِهِ النَّكْسَةُ سَحَابَةٌ صَيْفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ ،
وَلَنْ يَرِيْبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ^(٤) ، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ
ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ^(٥) ، فَأَبْطَأُ الدَّلَاءَ فَيَضَا أَمْلُوْهَا ، وَأَثْقَلُ
السَّحَابَ مَشِيًّا أَحْفَلُهَا ، وَأَلْدُ السَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيْلًا^(٦)
وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ^(٧)
وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ :

فِيَا مَنْ يَكُنُ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَيَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرَنُ الْوُفُ
وَأَعُوْدُ فَأَقُولُ : لَيْتَ شَعْرِي مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ
يَسْعُهُ عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ^(٨) الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ،

(١) مثقفه : صانعه وصاقلة .

(٢) هو أبو تمام .

(٣) النبوة : الجفوة . والغمرة : الشدة ، وهو مثل يضرب اليسر بعد العسر .

(٤) السيب : العطاء .

(٥) الغناء : المال والنفق .

(٦) الغليل : شدة العطش .

(٧) الاهتبال : الاهتمام وإتاحة الفرصة .

(٨) الجهل : الحق .

والتَّطَاوُلُ^(١) الذى لم يستغرقه تطوُّلكَ^(٢) ، والتَّحَامُلُ الذى لم يَفْ به احتمالك ، ولا أَخْلُو من أَن أَكُونَ بريئاً فأين العدلُ ؟ أو مُسيئاً فأين الفضلُ ؟ :

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ

حَنَانِيكَ^(٣) ! قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبِّيَّ^(٤) ، وَنَالَنِي مَا حَسْبِي بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أَرَانِي إِلَّا لَوْ أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ^(٥) فَأَبَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ : ارْكَبْ مَعَنَا^(٦) فَقُلْتُ « سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » ، وَأُمِرْتُ بِبِنَاءِ الصَّرْحِ^(٧) لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ^(٨) ، وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ^(٩) ، وَتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ^(١٠) ، وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي

(١) التطاول : الاستلاء .

(٢) التطول : الفضل .

(٣) حنانيك : رحمتك .

(٤) الزبي : جمع زبية وهى الحفرة فى المكان المرتفع ، وهو مثل يضرب حين يتفاقم الأمر .

(٥) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه العنة ،

وفى ذلك قال تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٦) يتمثل بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فعصاه فقال كما فى القرآن الكريم :

« سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء » ففرق .

(٧) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمر هامان أن يبنى له صرحاً أى قصرأ عالياً لعله يرى إله موسى .

(٨) يشير إلى قصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى .

(٩) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهاهم عن الصيد يوم السبت فخالقوا ما نهوا عنه فحق بهم

العذاب .

(١٠) يشير إلى ناقة صالح وذنب من عقربها، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله

وسقياها . فكذبوه فعقروها . فسددم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .

ابتلى به جيوش طالوت^(١)، وقُدَّت الفيل لأبرهه^(٢)، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة^(٣)، وتآولت في بيعة العقبة^(٤)، وانخذلت بثلث الناس يوم أُحد^(٥)، وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة^(٦)، وجئت بالإفك^(٧) على عائشة الصديقة، وأنفت من إمارة أسامة^(٨)، وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة^(٩)، ورويت رمحي من كتيبة خالد^(١٠)، ومزقت الأديم^(١١) الذي

-
- (١) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر ، فخالفوه ووقعوا في الإنم .
(٢) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشي وخروجه في جيش لهدم الكعبة .
(٣) هي الصحيفة التي كتبها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة الرسول .
(٤) بيعة العقبة بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه ، وقد يفهم من كلامه أن بعض الصحابة قد تأول فيها أي خالف الإجماع ، وهو ما لم يحدث مطلقاً .
(٥) يشير إلى واقعة أحد حين انخذل عن رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا بنحو ثلث الجيش .
(٦) بنو قريظة : طائفة من اليهود ، وقد أمر النبي أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا العصر في بني قريظة يعني بذلك أن يسرعوا في الذهاب إليهم ، على أن من تخلف لم يعتبر هذا ذنباً له !
(٧) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضي الله عنها مشهورة .
(٨) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولي رسول الله عليهم أسامة بن حارثة .
(٩) قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة ، ولم يرد بقوله سوءاً بأبي بكر ، فن الخطأ أن يتمثل في الذنوب بهذه العبارة ، والشيعية يرون أن علي بن أبي طالب كان أجدر بالخلافة من أبي بكر وعمر ولعله يشير إلى هذا الرأي .
(١٠) يشير إلى من حاربوا خالداً في أيام الردة .
(١١) يشير إلى أديم عمر الذي مزقه أبو لؤلؤة حين قتله وإلى قول الشاعر في رثائه :
- جزى الله خيراً من أمام وباركت يد الله في ذلك الأديم المعزق

بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ. ^(١) ، الَّذِي عُنْوَانُ
السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامٍ ^(٢) :

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرَبَ عَلِيٌّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمِّ

وَكَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ ^(٣) : أَنْ جَعَجَعَ ^(٤) بِالْحُسَيْنِ ،

وَتَمَثَّلَتْ عِنْدَمَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ ^(٥) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بَبَدْرِ عِلْمُوا جَزَعَ الْخَرْجَ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ

وَرَجَمَتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ ^(٦) عَلَى الثَّنِيَّةِ - لَكَانَ ^(٧)

فِي مَا جَرَى عَلَى مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَسْمَى نَكَالًا . وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى

الْمَجَازِ عِقَابًا :

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاجِمِينَا

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَيْمَةً أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ^(٨) ، وَنَبَأُ جَاءَ بِهِ

(١) الأشمط عثمان وفيه يقول حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسيحاً وقرأنا

(٢) قطام : صاحبة ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب .

(٣) يشير إلى قتل الحسين .

(٤) جمع : ضيق الخناق .

(٥) المتمثل يزيد بن معاوية ، تمثل بهذا البيت لابن الزبير الذي نظم في واقعة أحد وذلك حين

علم يزيد بهزيمة جيوشه لأهل المدينة الخارجين عليه .

(٦) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتله للعائذ بها ، وهو عبد الله بن الزبير ، على

الثنية وهي طريق الكعبة .

(٧) جواب « لو » المذكورة في الجملة السابقة « لو أمرت بالسجود لأدم فأبيت واستكبرت » .

(٨) كاشح : عدو ، ومن هنا أخذ يبرى نفسه من التهمة التي دسها عليه النمامون كذباً .

فاسقٌ . وَهُمْ الْهَمَّازُونَ^(١) الْمَشَاوُونَ^(٢) بِنَعِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا^(٣) ، وَالغَوَاةُ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا^(٤) صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ الصَّدَقُ مَحْمُودٌ إِلَّا مِنْهُمْ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً ۖ وَلَيْسَ وِرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ^(٥)

وَاللَّهُ مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ الذَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ^(٦) ، وَلَا نَصَبْتُ^(٧) لَكَ بَعْدَ التَّشْيِيعِ فَيْكَ ، وَلَا أَزْمَعْتُ^(٨) يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكْفَلْتُ بِهِ الثَّقَةَ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَيْثَ الْجَفَاءِ بِأَذْمَتِي^(٩) ، وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَوَدَّتِي^(١٠) ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلَمْ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكَّدْتُ^(١١) مَطَالِبِي ؟ وَعِلَامَ رَضِيَّتُ مِنَ الْمَرْكَبِ

(١) الهمازون : من الهمز وهو الغيبة .

(٢) المشاؤون : الساعون بالنسيمة .

(٣) كناية عن التفريق .

(٤) الأديم أى الجلد ، كناية عن الشخص كله .

(٥) البيت للنايفة .

(٦) الصاعية : الأذن ، وهى هنا كناية عن خاصة الشخص الذين يصفون اليه ويفشون مجلسه .

(٧) نصب : عادى .

(٨) أزعم : أقدم .

(٩) الأذمة : الحرمات جميع ذمام .

(١٠) العقوق : كفران النعمة .

(١١) أكادت : بخلت .

بالتعليق ، بل من الغنيمَةِ بالإياب^(١) ، وأنى غلبني المَغْلَبُ^(٢)
 وَفَخَرَ عَلَى الْعَاجِزِ الضَّعِيفُ ، ولطمتني غيرُ ذاتِ سِوَارِ^(٣) ؟
 وَمَالِكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وتُدْرِكُنِي وَلِمَا أَمْزَقُ . أَمْ
 كَيْفَ^(٤) لَا تَتَضَرَّمُ جِوَانِحُ الْأَكْفَاءِ^(٥) حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ
 بِكَ ، وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النَّظَرَاءِ مَنَافَسَةً فِي الْكِرَامَةِ عَلَيْكَ ،
 فَكَيْفَ وَقَدْ زَانِي قَدِيمٌ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسَمٌ نَعْمَتِكَ ،
 وَأَبْلَيْتُ الْبِلَاءَ الْجَمِيلَ فِي سِمَاطِكَ^(٦) ، وَقَمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ
 عَلَى بَسَاطِكَ ؟

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ غَرًّا قِصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجَمُ اقْتَادَتْ مِنَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا
 ثَنَاءً يُظَنُّ الرُّوضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا ضَحَى وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمَّنًا
 وَهَلْ لَيْسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتُهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدْتَ
 الْجِوَزَاءَ إِلَّا عِقْدًا فَصَلَّتْهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمَلَى الرَّبِيعُ إِلَّا ثَنَاءً
 مَلَأْتُهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ الْمِسْكُ إِلَّا حَدِيثًا أَدْعَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟

(١) يشير إلى قول امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمَةِ بالإياب

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) في المثل لو ذات سوار لطمتني . أي اللطم ضعيف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للمدح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السباط : الصف .

ما يومٌ حليمةَ بسير^(١) ، وإن كنتُ لم أكُسك سليبا ،
 ولا حليتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا ، بل وجدت أجرا
 وجصا فبنيت ، ومكان القولِ ذا سعة فقلت . حاش لك
 أن أعدد من العاملة الناصبة^(٢) ، وأكون كالذبالة المنصوبة
 تُضئ للناس وتحترق^(٣) ، فلك المثل الأعلى ، وهو بك
 - وبى فيك - أولى .

ولعمري إن صريح الرأي أن أتحوّل^(٤) إذا بلغتنى الشمس
 ونبابى المنزل ، وأصفح^(٥) عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال ،
 ولا أستوطئ العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور ، فيضرب بي
 المثل : « خامري أم عامر^(٦) » . وإني مع المعرفة بآن الجلاء^(٧)
 سبأ^(٨) ، والنقلة مثلة^(٩) :

وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْحَبًا

(١) مثل يضرب في كل أمر مشهور .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصل ناراً حامية » .

(٣) نثر قول العباس بن الأحنف :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضئ للناس وهي تحترق

(٤) هنا ثارت نفس ابن زيدون وأخذ يهدد بفراقه للوطن وأنه لا يصبر على الهوان .

(٥) أصفح : أضرب .

(٦) مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلبها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها .

(٧) الجلاء : الزوج عن الوطن .

(٨) السبأ : الأسر .

(٩) مثلة : نكال وعقاب .

تُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسَىٰ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا
لَعَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطْنَ الَّذِي لَا يُخْشَىٰ فِرَاقُهُ ،
وَالْخَلِيطُ . الَّذِي لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ^(١) ، وَالنَّسَبُ الَّذِي لَا يُجْفَىٰ ،
وَالجَمَالُ الَّذِي لَا يُخْفَىٰ . ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بِالْكَوَاكِبِ أَبْهَىٰ
أَثْرًا ، وَلَا أَسْنَىٰ خَطْرًا ، مِنْ اقْتِرَانِ غِنَىٰ النَّفْسِ بِهِ ،
وَانْتِظَامِهَا نَسَقًا مَعَهُ ، فَإِنَّ الْحَائِزَ لِهَمَا ، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ
فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَّ أَعَذَبَ مَنَهْلٍ ،
وَحَطَّ . فِي جَنَابِ قَبُولِ فَنَزَلَ ، وَضُوحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ،
وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَىٰ أَهْلِهِ :
وَقَبَلَ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ^(٢)
غَيْرَ أَنَّ الْمَوْطَنَ مَحْبُوبٌ^(٣) وَالْمَنْشَأَ مَأْلُوفٌ ، وَاللَّبِيبَ
يُحْنُ إِلَىٰ وَطْنِهِ ، حَنِينَ النَّجِيبِ^(٤) إِلَىٰ عَطْنِهِ ، وَالكَرِيمُ لَا يَجْفُو
أَرْضًا فِيهَا قَوَابِلُهُ^(٥) ، وَلَا يَنْسَىٰ بَلَدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ :

(١) كَبْكَب : اسم جبل في الحجاز .

(٢) الزِيَال : المفارقة .

(٣) مقيل : من القيلولة وهي هنا تقابل « مبيت » فيراد بها قضاء اليوم كله .

(٤) هنا حدثت ثورة ابن زيدون ، فأخذ يعلن أنه لن يزابل جوار أبي الحزم ابن جهور ولا مدينته

التي هي وطنه وبلده .

(٥) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الماء .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهي التي تستقبل المولود عند نزوله .

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ^(١) إِلَى وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ^(٢) سَحَابُهَا
 بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَامِي^(٣) وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِي تَرَابُهَا
 هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بَعْقَدِ^(٤) جَوَارِكِ ، وَمُنَافَسَتِي فِي الْحِظِّ .
 مِنْ قُرْبِكَ ، وَاعْتِقَادِي أَنْ الطَّمَعُ فِي غَيْرِكَ طَبَعٌ^(٥) ، وَالغِنَى
 مِنْ سِوَاكَ عَفَاءٌ ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ عَوَزٌ^(٦) ، وَالْعَوِضُ لَفَاءٌ^(٧) :
 وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَنْناً بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ
 وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^(٨) ، وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ ،
 وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفْقَارُ^(٩) .

فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ^(١٠) مِمَّنْ يَتَوَلَّأَكَ؟ وَالْمَيْلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ؟
 وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :
 يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا نَاكِلًا شَيْءٌ بَعْدَ كُمْ عَدَمٌ^(١١)

-
- (١) مَنْعَجٌ : مَوْضِعٌ .
 (٢) يَصُوبُ : يَهْطُلُ .
 (٣) التَّمَامِي : جَمْعُ تَيْمَةٍ وَهِيَ الْمَوْذَةُ الَّتِي تَمْلُقُ عَلِ الصَّبِيِّ لِاتِّقَاءِ الْحَسَدِ .
 (٤) الْعَقْدُ : الضَّبَابُ وَالْمَهْدُ .
 (٥) الطَّمَعُ : الدَّنَاءَةُ وَالْحَسَةُ .
 (٦) عَوَزٌ : فَاقَةٌ .
 (٧) لَفَاءٌ : خِصَّةٌ .
 (٨) مِثْلُ يَضْرِبُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي يُفْضَلُ غَيْرُهُ .
 (٩) الْمَرْخُ وَالْعَفْقَارُ : نَوْعَانِ مِنَ الشَّجَرِ سَرِيعَا الْإِتْقَادِ ، وَاسْتَمَجَدَ : زَادَ نَارًا وَاتَّقَادًا ، وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ أَيْضًا فِي الشَّيْءِ الَّذِي يُفْضَلُ غَيْرُهُ .
 (١٠) رَجَعَ ابْنُ زَيْدُونَ يَسْتَعْطِفُ ابْنَ جَهْوَرٍ مَتَذَلِّلاً خَاضِعاً لِعَلِهِ يَلِينُ لَهُ .
 (١١) الْبَيْتُ لِلْمَتْنِيِّ .

أَعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيْمَ خُلْبًا^(١) ، وَأَسْتَمَطِرَ جَهَامًا^(٢) ،
وَأَكْدِمَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ^(٣) وَأَشْكُوَ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ
وَالرَّخْمِ^(٤) . وَإِنَّمَا أَبَسَسْتُ^(٥) لَكَ لِتَدْرَ ، وَحَرَّكَتُ لَكَ الْحِوَارَ^(٦)
لِتَجِنَ ، وَنَبَهْتُكَ لِأَنَامَ ، وَسَرَيْتُ إِلَيْكَ ، لِأَحْمَدَ السَّرَى
لَدَيْكَ . بَعْدَ الْيَقِينِ أَنْكَ إِنْ سَنَيْتَ^(٧) عَقَدَ أَمْرِي تَيْسَرَ ،
وَمَتَى أَعَذَّرْتَ^(٨) فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مَحِيْطٌ .
بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمْرَةَ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، فَضَلَ
الْجَاهِ ، تَعَوَّدُ بِهِ ، صَدَقَةٌ :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ^(٩)
لَعَلِّي أَلْقَى الْعَصَا بِذِرَاكِ^(١٠) ، وَتَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي ظِلِّكَ ،
وَأَسْتَأْنِفُ التَّادِبَ بِأَدْيِكَ ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا

(١) شام خلباً : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٢) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٣) مثل يضرب لمن يريد الشيء من غير موضعه .

(٤) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبي :

ولا تشك إلى قوم فتشمهم شكوى الجريح إلى العقبان والرغم

(٥) أبست : رفقت . وتدر : تسيل ، كناية عن تحوله إلى الرضا .

(٦) الحوار : ولد الناقة .

(٧) سنى : سهل .

(٨) أعذرتى : طلب العذر .

(٩) البيت لأبي تمام .

(١٠) الذرى : الكنف والجانب .

أُوجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحِظَةٍ ، وَلَا أَدَعُ لِلْقَادِحِ مَسَاعَ
 لَفْظَةٍ ، وَاللَّهُ شَهِيدُكَ مِنْ إِطْلَابِي^(١) بِهَذِهِ الطَّلِبَةِ ، وَإِشْكَائِي^(٢)
 مِنْ هَذِهِ الشُّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ بِهَا مَكَانَ المَصْنَعِ^(٣) ،
 وَتَسْتَوِدُّعُهَا أَحْفَظًا . مُسْتَوْدَعٌ ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا
 مِنْكَ حَرَىٌّ بِهِ ، فَذَلِكَ بِيَدِكَ ، وَهَيِّنْ عَلَيَّكَ .

* * *

وَلَمَّا تَوَالَّتْ غُرُرُ هَذَا النُّشْرِ ، وَاتَسَقَّتْ دُرَرُهُ . فَهَزَّ
 عِطْفَ غُلُوَائِهِ ، وَجَرَ ذَيْلَ خِيَلَاتِهِ ، عَارِضَهُ النُّظْمُ مُبَاهِيًا ،
 بَلْ كَايِدُهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أَشْفَقَ مِنْ أَنْ يَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ،
 وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ أَلْطَافُهُ ، فَاسْتَحْسَنَ العَائِدَةَ^(٤) مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ
 بِالفَائِدَةِ لَهُ ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ العَلِيلَ ، وَالخَاطِرَ
 الكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً فِي أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً^(٥)
 بِحَلِيِّهَا وَمَلَابِيهَا^(٦) ، وَهِيَ هِيَ :

الهَوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمُنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النُّسِيمِ

(١) إِطْلَابِي : مِنْ أَطْلَبُ أَيِ اعْطَاهُ بِمَا طَلَبُهُ .

(٢) إِشْكَائِي : إِزَالَةُ شُكْوَايَ .

(٣) المَصْنَعُ : المَصْنَعُ ، مَصْدَرٌ مِمَّي .

(٤) العَائِدَةُ : الصَّنِيعُ وَالمَعْرُوفُ .

(٥) مَنْصُوصَةٌ : مَجْلُوءَةٌ .

(٦) المَلَابِ : الزَّعْفَرَانُ .

لو يدومُ السرورُ للمستديم
 زمنٌ ما ذِمامُهُ^(١) بالنمِيمِ
 ومزاجُ الوِصالِ من تَسْنِيمِ^(٢)
 وةِ نشوانٍ من سُلَافِ النعيمِ
 لم يَطلُ عهدٌ جيدِهِ بالتَمِيمِ^(٥)
 في سُرى البدرِ في الظلامِ البهيمِ
 يبُّ إلى حِسِّ كاشِحٍ بالنَمِيمِ
 ليس يَومِي بواجِدِ^(٦) مِنْ ظُلُومِ
 سُهما يُكسِفانِ دونِ النجومِ
 بالمصابِ العَظيمِ نحوِ العَظيمِ
 دَدِ في السَّرْوِ^(٧) واللُّبابِ الصَّمِيمِ
 رَفَكَانِ الخِصُوصِ وَفوقَ العُموَمِ

سَرْنَا عيشنا الرقيقُ الحواشي
 وَطَرًا ما انقضى إلى أن تَقْضَى
 إذ ختامُ الرِّضا المُسَوِّغُ مِسْكُ
 وغريضُ^(٣) الدِّلالِ غَضُّ^(٤) جَنَى الصَّبِ
 طالما نافرَ الهوى منه غِرُّ
 زارَ مستخفياً وهيهاتَ أن يَخُ
 فوشى الحَلَى إذ مَشَى وَهفَا الطُّ
 أيها المؤذِنِ بظُلْمِ اللَّيالي
 قمرُ الأفقِ إن تَأَمَلتَ والشِّمِ
 وَهُوَ الدهرُ ليسَ يَنفكُ يَنجُو
 بَواً اللهُ جَهْوراً شرفَ السُّو
 واحِدٌ سَلَّمَ الجَمِيعُ له الأَمُّ

(١) الذمام : العهد .

(٢) التسنيم : ماء الجنة ، وفي القرآن الكريم : « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك

فليتافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .

(٣) غريض الدلال : مملوء به .

(٤) غض : ناضر .

(٥) إتميم : جمع التيممة وهي العوذة .

(٦) واجد : حاقد .

(٧) السرو : الشرف .

قَلَدَ الْغَمْرُ^(١) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ
 خَطْرُ^(٢) يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعِي
 أَيُّهَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو
 مَا عَنَّا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ الْمَرَّ
 وَبِقَاءِ الْحَسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي
 أَفْصِرُ مَثِينًا خَمْسًا^(٦) مِنَ الْأَيِّ
 وَمُعْنَى مِنَ الضَّنَى بِهَنَاتٍ
 سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ وَفِي الْعَا
 نَارُ بَغِي سَرَتْ إِلَى جَنَّةِ الْأُمِّ
 بِأَبِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْتُكَ بَرْدًا
 لَشَفِيعِ الثَّنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوِّ

وَكَتَفَى جَاهِلٌ بَعْلَمَ الْعَلِيمِ
 خُلُقِي بَارِعٍ وَخَلَقِي وَسِيمِ^(٣)
 وَالْعَصَا بَدءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ^(٤)
 بَطْ . فِي الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّضْمِيمِ^(٥)
 أَمْ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ
 نَكَاتٌ^(٧) بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 ثَدِ أُنْسٌ يَفِي بِبُرءِ السَّقِيمِ
 نَ لظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^(٨)
 وَسَلَامًا كِنَارِ إِبْرَاهِيمِ
 بِ الْحَيَا^(٩) لِلرِّيَاحِ لَا لِلغَيُومِ

(١) الغمر : قليل التجربة .

(٢) خطر : شرف .

(٣) وسيم : وقور .

(٤) تضمين للمثل المشهور : « إن العصا قرعت لذى الحلم » .

(٥) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان ، العتق في الخليل : الكرم والتطهيم : تمام الحسن فيها ، يشبه نفسه ، وهو في الاعتقال ، بالصافن الذي سُمّ مكانه الذي ربط فيه لعتقه وكرمه .

(٦) إشارة إلى أنه قضى في السجن خمسمائة يوم .

(٧) نكأ : أدى . الكلوم : الجروح . القرح : ما بالجرح من فساد .

(٨) الصريم : الليل الأسود .

(٩) الحيا : النيث .

وزعيم^(١) ابَّان يُدَلِّلَ لى الصَّع
 وودادٌ يَغَيِّرُ الدهرُ ما شا
 وثناءٌ أرسلتهُ سلوةَ الظَّا
 فهو ريحانة الجليس ، ولا فحْ
 ومتى تبدل الصنِعة يُولِع
 هاكها - أعزك الله - يبسطها الأملُ ، ويقبضها
 الخجلُ ، لها ذنبُ التقصير ، وحرمةُ الإخلاص فهبُ
 ذنباً لِحُرمةٍ ، واشفعْ نعمةً بنعمة ، لِيَتَأْتى لك الإحسانُ
 من جهاتِهِ ، وتسلكُ إلى الفضلِ من طرقاتِهِ ، إن شاء
 اللهُ تعالى .

* * *

(١) زعيم : كفيل .

(٢) مثابى : رجوعى .